ناجي علوش

الماركسية

والمسألة اليهودية

٧



دار الطليعة - بيروت

الماركسية والمسألة اليهودية

١٨٤٤ - ١٩٦٨

الطبعة الأولى
شباط (فبراير) ١٩٦٩

ناجي علوش

الماركسية والمسألة اليهودية
١٨٤٤ - ١٩٦٨

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

مقدمة هـــذا البحث

يستهدف هذا البحث أمرين :

الاول : دراسة مواقف الماركسيين من الحركة الصهيونية وإسرائيل ، ابتداء بكارل ماركس وانتهاء بماركسيي اليوم .

الثاني : تحليل « إسرائيل » تحليلا ماركسياً ، أي على ضوء المنهج الماركسي في التحليل العلمي .

والغاية من هذا كله التوجه إلى الماركسيين مباشرة ، في محاولة لمواجهة إسرائيل والحركة الصهيونية في ميدان هام ،من أهم ميادين الفكر السياسي العالمي الحـــديث . ذلك أن الماركسية ليست الفكر « الرسمي » لدول يزيد تعداد شعوبها

عن مليار من البشر ، وتزداد أهميتها سياسياً وعسكرياً وعلمياً كل يوم ، فحسب ، بل هي أيضاً ، عقيدة أحزاب كبرى فعالة في مناطق أخرى من العالم . وعلى الرغم مما يثور حولها من نقاش ، ومن الانقسامات والخلافات التي تدب في صفوف المؤمنين بها ، فإنها اليوم توجه الاتجاه التقدمي في العلوم الاجتماعية ، وتقود قطاعات تزداد اتساعاً من الباحثين الاجتماعيين والسياسيين والاقتصاديين .

ويزيد من أهمية الماركسية أنها عقيدة القوى الصاعدة في العالم ، وأنها تقف اليوم نقيضاً وبديلاً للنظام الرأسمالي الذي ينحسر ظله عن هذا العالم .

لهذا كله ، فإنني أرى من الضروري أن نتوجه إلى الماركسيين بلغتهم .

غير أني أود أن اؤكد للقارىء العربي : إن ما نويت عمله لم يكن ، بأية حال من الاحوال ، كتابه تاريخ علاقة الماركسية باليهود ، فذلك عمل موسوعي كبير ليس في قدرة فرد أن يقوم به، لا سيما إذا كان لا يتقن إلا لغة اجنبية واحدة. ولذلك لم أعمد إلى تحليل متسلسل لمواقف كثير من الاحزاب الشيوعية الاوروبية من المسألة اليهودية ، ولم أحلل مواقف الاحزاب الشيوعية في أوروبا الشرقية من المسألة ذاتها . واكتفيت حين

عرضت مواقف الاتحاد السوفياتي، ببعض المواقف والاجراءات التي تكفي شواهد ينطلق منها التحليل للوصول إلى نتائج معينة .

وعلى الرغم من هذا ، فإن الكتاب يعطي فكرة واضحة عن مواقف فئات الماركسيين المختلفة من « المسألة اليهودية » ، كما انه يعطي صورة واضحة عن موقف الاتحاد السوفياتي من الصهيونية واليهود .

ولما كان البحث الاول من نوعه بالعربية ، وكانت المكتبة العربية غير مزودة بالمراجع الاجنبية ، فقد وجدت صعوبة في الحصول على المراجع اللازمة ، واني لاشكر بعض العرب المقيمين في الخارج ، وعلى رأسهم بسام طيبي ، وطارق اسماعيل على المساعدة التي قدماها لي ...

كما أني أود أن اعتذر للقارىء العربي عن عدم خوضي في مواضيع ذات علاقة بهذه الدراسة ، مثل الماركسية والمسألة القومية ، واليهود والمسألة القومية ، وتاريخ اليهود في العصر الحديث ، واللاسامية والاشتراكية واليهود الخ ... ولقد اشرت لبعض المراجع المتعلقة بهذه المواضيع ، حيث رأيت ذلك ضرورياً ، حتى أوفر للقارىء المعني إمكانية اطلاع

أوسع ...

وأود أن أذكر أنني اضطررت لدفع هذا الكتاب الى المطبعة تحت ضغط ظروف غير عادية ، ولولا هـذه الظروف لكنت تريثت في إصداره وأجريت تعديلات فيه .

ويهمني أن أعرف رأي القارىء في هـذه المحاولة ، لكي أقوم بالتعديل اللازم على ضوء ملاحظاته ، إذا ما كان لهذا الكتاب أن يطبـع طبعة ثانية .

المؤلف

بيروت ٢٥ / ١ / ١٩٦٩

اليَهُود ليسُوا أمة

(١٨٤٤ - ١٩٤٧)

تمهيد

تمثل الماركسية اللينينية اليوم في ميدان السياسة ايديولوجية الثورة الوطنية والطبقية ، أي ايديولوجية الثورة الوطنية والبروليتارية الاشتراكية معاً ، وهي تمثل في ميدان العلوم الاجتماعية المنهج الديالكتيكي في البحث والتحليل . وعليه ، فالماركسية ضد « اليهودية » سياسياً ، وضدها إيديولوجياً؛ لأن « اليهودية » ضد العلم والتحرر . الماركسية ايديولوجية التقدم والتغير ، أما اليهودية فهي ايديولوجية الثبات والتحجر .

لهذا فقد اصطدمت الماركسية باليهودية منذ البدء . ولقد كتب ماركس دراسته : « المسألة اليهودية » سنة ١٨٤٤، أي قبل صدور البيان الشيوعي بأربع سنوات . ولم يكن ما كتبه ماركس إلا المناوشة الاولى مع الصهيونية ، إذ إن خلفاءه

وجهوا ضربات قاصمة للصهيونية ، يهودية عصر الامبريالية ،ولم يتركوا أي نشاط « يهودي » دون أن يفتحوا النار عليه .

وسوف تتولى هذه الدراسة مهمة الكشف عن المعارك المختلفة التي خاضتها الماركسية مع « اليهودية » . وستأتي خلال ذلك على تبيان المراحل التي مر بها الفكر السياسي الماركسي في موقفه من « المسألة اليهودية » .

١ ـ ماركس والمسألة اليهودية

تكتسب دراسة ماركس : « المسألة اليهودية » [١] أهميتها من العاملين التاليين :

الأول : كونها جزء من التراث الماركسي ، وكونهـا بالتالي موقفاً ماركسياً من المسألة اليهودية .

الثاني : طريقة طرحها للمسألة اليهودية .

فما هو موقف ماركس من المسألة اليهودية ؟ وكيف طرح هذه المسألة ؟

إن طريقة ماركس في طرح المسألة اليهودية ومناقشتهـا ، تحدد موقفه منها ، فهو يرفض أن يعتبر مشكلة اليهودي مشكلة

---

١ ـ كارل ماركس ، المسألة اليهودية . ترجمة محمد عيتاني . مكتبـة المعارف ـ بيروت ١٩٥٢ .

دينية فقط . ويكشف خطأ « بوير » عندما يطرحها على هذا الأساس ، مبيناً أن بوير لا يرى المسألة إلا من جانب واحد[٢]. وماركس يرفض أن يقف هنا ، إنه يذهب أبعد من ذلك ، غير مقتنع بأن تخلي « اليهودي عن اليهودية ، والإنسان اجمالاً عن الدين » يعني تحرراً وطنياً ، وان «الالغاء السياسي للدين بمثابة الغاء كل دين » [٣] .

يبدأ ماركس معالجة القضية قائلاً : « لم يكن كافياً التساؤل: من ينبغي له ان يحرر ، ومن الذي يجب أن يحرر ؟ فعلى النقد أن يطرح على نفسه سؤالاً ثالثاً : بأي نوع من أنواع التحرر يتعلق الأمر؟ وأية شروط تقوم في جوهر التحرر المقتضى [٤]؟ »

القضية ، في نظر ماركس اذن ، ليست مسألة مسيحي ويهودي . وليست مسألة من منهما يحرر الآخر كما طرحها بوير ، بل مسألة مضمون التحرر ذاته .

والمسألة اليهودية لا تطرح بشكل مطلق ، بل « تطرح بصورة تختلف تبعاً للدولة التي يعيش اليهودي في ظلها . ففي المانية ، حيث ليس ثمة دولة سياسية ، دولة من حيث هي دولة ،

---

٢ ـ كارل ماركس ، المرجع السابق ص ١٣ .
٣ ـ كارل ماركس ، المرجع السابق ص ١٢ .
٤ ـ كارل ماركس ، المرجع السابق ص ١٣ .

نرى أن المسألة اليهودية هي مسألة لاهوتية بحتة »[٥]. « أما في فرنسة ، هذه الدولة الدستورية ، فالمسألة اليهودية ، هي مسألة النظام الدستوري ، مسألة نقص التحرر السياسي . ونظراً لأنه يحتفظ في فرنسة بمظهر دين للدولة ، في شكل تافه متناقض ، فإن وضع اليهود يحتفظ ، إزاء الدولة ، بمظهر تعارض ديني لاهوتي .

ولا تفقد المسألة اليهودية مدلولها اللاهوتي ، وتصبح مسألة علمانية ، إلا في دول أميركة الشمالية الحرة ، أو على الأقل في بعض هذه الدول »[٦] .

فالمسألة اليهودية لا تتجاوز كونها مسألة لاهوتية ، إلا عندما تتجاوز الدولة لاهوتيتها ، وتتحول الى دولة سياسية بالفعل[٧]. وهذا التحول الذي يسميه ماركس التحرر السياسي ، هو تحرير « الدولة من الدين بتحررها من دين الدولة »[٨]. ولكن التحرير السياسي لليهودي أو للمسيحي لا يعني تحرر الانسان . لأن تحرر الدولة من الدين ، لا يعني تحرر الانسان منه . والانسان عندما يتحرر من الدين ، بإلغاء دين الدولة ، لا يتحرر من الدين بل يبقي عليه ،

٥ ـ كارل ماركس ، المرجع السابق ، ص ١٤ .
٦ ـ كارل ماركس ، المرجع السابق ، ص ١٥ .
٧ ـ كارل ماركس ، المرجع السابق ، ص (١٥ ـ ١٦)
٨ ـ كارل ماركس ، المرجع السابق ، ص ١٧ .

ولكن دون أن يكون متميزاً [٩]. والانسان في مثل هذه الحالة لا يكون قد تحرر من الدين ، بل تلقى حرية دينية [١٠] .

يتم مثل هذا « التحرر السياسي » مع تحول الدولة من دولة لاهوتية ، وهي صيغة ناقصة للدولة ، إلى دولة سياسيـــة ، أي دولة برجوازية .

وهذا التحرر السياسي ، يعني : « تحويل الانسان من جهة إلى عضو من أعضاء المجتمع البرجوازي ، إلى فرد أناني مستقل، ومن جهة أخرى إلى مواطن ، الى شخص معنـــوي » [١١] ؛ تتناقض حقوقه مع واقعه .

إن التحرر السياسي هذا يحقق مثالية الدولة ، ولكنه يحقق في الوقت ذاته مادية المجتمع ، وهو عندمـا يحول الانسان إلى « عضو في المجتمع البرجوازي » يجعله « فرداً مفصولاً عن المتحد، ومنطوياً على ذاته، ومنشغلاً فقط بمصلحته الشخصية، ومستجيباً لتحكمه الفردي» [١٢] ، انه يجعله يهودياً .

---

٩ ـ كارل ماركس ، المرجع السابق ، ص ٣٦ .
١٠ ـ كارل ماركس ، المرجع السابق ، ص ٤٨.
١١ ـ كارل ماركس ، المرجع السابق ، ص ٥٠.
١٢ ـ كارل ماركس ، المرجع السابق ، ص ٤٣.

من هنا استخلص ماركس هذه النتيجة « يجب ، ألا نبحث عن سر اليهودي في دينه ، بل فلنبحث عن سر الدين في اليهودي الواقعي » [١٣] ؛ ومضى باحثاً عن « العنصر الاجتماعي الخاص اللازم لالغاء اليهودية » [١٤] .

وعندما طرح ماركس على نفسه هذا السؤال : « ما هو الأساس الدنيوي لليهودية ؟ » أجاب عليه قائلاً : « المصلحة العملية والمنفعة الشخصية » . ولا يفتأ ماركس أن يصل الى هذه النتيجة : « إذن فالعهد الحاضر ، بتحرره من المتاجرة والمال ، وبالتالي من اليهودية الواقعية والعملية ، إنما يحرر نفسه ايضاً »[١٥]

اليهودية إذن ليست منفصلة عن المجتمع ، إنما هي من صميمه ، « ولقد عاشت ليس ضد التاريخ ، وإنما بالتاريخ » [١٦] « وإنما ينسل المجتمع البرجوازي اليهودي من أعماق احشائه هو نفسه دون انقطاع » [١٧]. « ولا تبلغ اليهودية ذروتها ، إلا مع اكتمال المجتمع البرجوازي »[١٨] .

---

١٣ ـ كارل ماركس ، المرجع السابق ، ص ٥٥ .
١٤ ـ » » ، » » ، ص ٥٤ .
١٥ ـ » » ، » » ، ص ٥٥ .
١٦ ـ » » ، » » ، ص ٥٦ .
١٧ ـ » » ، » » ، ص ٥٧ .
١٨ ـ » » ، » » ، ص ٦٢ .

أما جوهر اليهودية في نظر ماركس فهو «المتاجرة وشروطها» ليس إلا ، هذه المتاجرة التي تجعل المال إلهاً « أمامه لا ينبغي لأي إله أن يعيش » . و « المال هو إله اسرائيل المطماع » . « السفتجة ، هذا هو الإله الحقيقي لليهودي ». ولكن هذا الاله لم يبقَ إلهاً يهودياً ، « فلقد أصبح إله اليهود إلهاً دنيوياً ، وغدا إله الناس »[١٩] وعليه «فإن قومية اليهودي الوهمية هي قومية التاجر ، قومية رجل المال »[٢٠] .

وحل ماركس للمسألة واضح : « فحين ينجح المجتمع في الغاء الجوهر العملي لليهودية ، المتاجرة وشروطها ، عندئذ يصبح وجود اليهودي مستحيلاً ، ذلك لأن ضميره لم تبقَ ثمة من حاجة اليه ، ذلك لأن الأساس الذاتي لليهودية ، الحاجة العملية ، قد اتخذت شكلاً انسانياً ، وذلك لأن المنازعة بين الوجود الفردي والمحسوس للانسان ووجوده الاجتماعي قد ألغيت .

التحرر الاجتماعي لليهودي ، انما هو تحرير المجتمـــع من اليهودية [٢١]».

إن ماركس هنا يؤكد بصورة لا لبس فيها ، على أن تحرر

---

١٩ ـ كارل ماركس ، المرجع السابق ص ٥٩ .
٢٠ ـ « « « « ص ٦٠ .
٢١ ـ « « « « ص ٦٤ .

اليهودي مرهون بالقضاء على المجتمع الرأسمالي ، وان هذا التحرر هو ليس تحرراً لليهودي ، إنما هو تحرر للانسان . ومع ان ماركس كتب هذه الدراسة سنة ١٨٤٤ ، فليس في كتاباته التالية ما يدل على أنه غيّر موقفه من المسألة .

لقد عاصر ماركس نشاطات يهودية مختلفة ، استهدفت بعث التراث الثقافي اليهودي ، كما استهدفت تجميع اليهـــود في فلسطين ، وعلى الرغم من ذلك ، فإنه لم يرَ في النشاطات اليهودية حركة قومية . وبينما دعم الحركات القومية في ايرلندة وبولندة ، وأيّد الوحدة القومية الألمانية والوحدة القومية الايطالية (٢٢) فإنه لم ير في « اليهودية » إلا قومية وهمية .

وتؤكد لنا دراسة ماركس مسألتين هامتين :

الأولى : ان المسألة اليهودية ليست مسألة قومية ، وأنهـــا تعالج حسب الظروف المحيطة بها ، فهي في المانية غيرها في فرنسة ، وغيرها في بعض دول أمريكة الشمالية .

الثانية : ان هذه المسألة تطورت من مسألة لاهوتية في عهود

---

٢٢ ـ مرقص الياس : الماركسية والشرق ، دار الطليعة ، كانون الاول ١٩٦٨ ص (١٠٥ - ١٤١) .

سيطرة الاقطاع ، الى مسألة سياسية في عهد صعود البرجوازية ، وأن حلها مرهون بحل مشكلة النظام البرجوازي : أي القضاء عليه . وبالقضاء على النظام البرجوازي لا يتم تحرير اليهود خاصة ، بل يتم تحرير المجتمع من اليهودية .

لقد اختار ماركس الخط المقابل لخط بوير: بوير يرى مشكلة اليهودي في دينه ، وماركس يرى مشكلة اليهودي في واقعه . وإننا لا نعتقد بأن ماركس يضل السبيل عندما يركز على الواقع ، على البناء التحتي ، ولكن هذا لا يتعارض مع القول بأن واقع اليهودي غير منفصل عن دينه تاريخياً منذ الخروج حتى اليوم . واذا كان الواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي هو منطلق الفكر عامة ، فيه ينمو ويترعرع ، فإن الدين اليهودي ، الذي هو نتاج واقع اليهود ، ساهم في تحديد مكانهم وعلاقاتهم مع جيرانهم في فلسطين وفي أرض الشتات ، منذ احتلال اريحا بقيادة يشوع ، حتى احتلال أريحا بقيادة دايان .

إن هذا البناء الفوقي لم يُعرْه ماركس اهتماماً كافياً ، مع أنه من الواضح جداً أن أي يهودي ما كان ممكناً أن يكون موجوداً اليوم ، لولا الدين اليهودي [٢٣] . فاليهودي الروسي أو

---

٢٣ - يفسر المجلس هذا الاهتمام الزائد بالبناء التحتي في رسالة كتبها إلى -

الالماني أو الفرنسي الذي لا يعرف العبرية ولا حتى اليديشية ، والذي لا يعرف الا لغة بلاده ولا يتقيد إلا بتقاليدهـا ، لماذا يعتبرنفسه يهودياً، ولماذا يتحمس للحركة الصهيونية ولاسرائيل؟ لا بد بالطبع من ان يكون السر في دينه أيضاً .. هذا البناء الفوقي العتيق .

ولقد دلت تجربة خمسين عاماً من البناء الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي ، أنها لم تكن كافية لتحرير قسم كبير من اليهود السوفيات من يهوديتهم .

ـ بلوخ عام ١٨٩٠ جاء فيها :« ماركس وأنا ، نحمل جزئياً مسؤولية كون الشباب يعطون الجانب الاقتصادي وزناً أكبر مما يجب . ففي مواجهتنا لخصومنا كان علينا أن نؤكد المبدأ الأساسي الذي ينكرونه ، وفي هذه الحال لم نجد دائماً الوقت والموضع والظوف الذي يتيح لنا إعطاء العوامل الأخرى التي تشترك في الفعل المتبادل مكانها . ولكن ما ان كان يجب علينا أن نقدم قطعة تاريخ حية (أو شرحة تاريخ) أي أن ننتقل إلى التطبيق العملي ، حتى كان الامر يتبدل ولا يبقى مجال للخطأ . وقد أكد انجلس هذه الحقيقة اكثر من مرة . ماركس - انجلس المؤلفات المختاره . الطبعة الفرنسية ـ موسكو ص (٥٣٥ ـ ٥٣٧) ٥٤٤. والياس مرقص :الماركسية والشرق دار الطليعة ـ الطبعة الاولى ، كانون الاول ١٩٦٨ ـ ص (٥٧ ـ ٥٩) .

ولكن هذه الحقيقة لا تنفي موضوعة ماركس نفياً قاطعاً.. إنها تشير فقط الى أهمية البناء الفوقي ، والى تحوله الى واقـــع موضوعي لا يزول بزوال الظروف التي أنتجته آلياً ، إنما يحتاج زواله الى عمل وتربية وزمن .

* * *

٢ ـ لينين والمسألة اليهودية .

تطورت النشاطات السياسية اليهودية بعد ماركس تطوراً كبيراً . ولقد شهدت نهاية القرن التاسع عشر انعقاد أول مؤتمر صهيوني (بال ١٨٩٧) ، كما شهدت نشوء أحزاب يهودية . وكان من هذه الاحزاب « الاتحاد العام للعمال اليهود في ليتوانيا وبولونيا وروسيا » أو « البوند » الذي أنشىء سنة (١٨٩٧) أيضاً، والذي انضم في آذار من سنة ١٨٩٨ إلى «الحزب العمالي الاشتراكي الديمقراطي في روسيا » ، ولكنه طالب في المؤتمر الثاني للحزب المذكور باعتبار البوند الممثل الوحيد للعمال اليهود في روسيا وبقبول مبدأ تقسيم التنظيم الحزبي حسب القوميات . فلما رفض طلبه، انشق البونديون على « الحزب العمالي الاشتراكي الديمقراطي الروسي » . وقد عاد البونديون إلى الحزب العمالي الاشتراكي الديمقراطي ، بعد المؤتمر الرابع للحزب الذي عقد سنة ١٩٠٦ في استوكهولم ، وسمي مؤتمر الوحدة . وكان ممثلو البوند في هذا المؤتمر ثلاثة . وقد اشترك

البوند أيضاً في المؤتمر الخامس للحزب المذكور ، المنعقد في لندن في أيار من سنة ١٩٠٧ .

ظل الصراع ، على الرغم من الانتماء لحزب واحد أحياناً ، شديداً بين حزب لينين من جهة ، وجماعة البوند من جهة أخرى . ولقد كانت أسباب الصراع عديدة ، ليس هنا محل ذكرها . إلا أن أهم هذه الاسباب الاختلاف حول مسألة القوميات .

ظل هذا الصراع محتدماً ، حتى حل البوند تنظيماته سنة ١٩٢١ . وقد انضم قسم منه إلى الحزب الشيوعي السوفياتي بعد ذلك ، ولكن كثيراً من هؤلاء الذين انضموا إلى الحزب الشيوعي أصابتهم التصفيات بتهمة التخريب [٢٤] .

فما هو جوهر الخلاف بين لينين والبوند وغيره من الاحزاب اليهودية وغير اليهودية حول مسألة القوميات ؟

كان البوند والاحزاب الاخرى يرفعون شعار الاستقلال الثقافي القومي الذاتي ، بينما كان لينين يرفع شعار : « حق الامم في تقرير المصير » . وقد لا يبدو فرق بين الشعارين لاول وهلة

---

٢٤ – لينين ، في القضية القومية ، ترجمة إحسان سركيس (ص ٢٢ – ٢٣) . منشورات دار ابن الوليد ، ١٩٥٨ .

ولكن معرفة مضمون كل منهما ، يكشف الفرق الكبير بينهما، فالاستقلال الثقافي الذاتي يستهدف قيام وحدات قومية ثقافية ، تمثل القوميات والجماعات القومية المختلفة ضمن إطار الدولة الواحدة . ولا يكون للأمة أو الجماعة القومية منظمة واحدة ، بل منظمات تتعدد بمقدار ما تتعدد التجمعات القومية . فاليهود في موسكو يدرسون باليديش مثلاً ، والارمن بالارمنية الخ .. وحيث وجد يهود أصبح من الواجب تأمين الدراسة لهم بلغتهم وهكذا.. أما الشعار الآخر، شعار حق الامم في تقرير مصيرها فيستهدف تحرير كل الامم المظلومة ، وإقامة علاقات أخوية بين الامم ، مبنية على ضرورة وحدة الكادحين من أبناء هذه الامم ، من أجل تحررهم . كان لينين يدعو لحرية تقرير المصير ويؤكد حق الانفصال ، ليكون ذلك طريق اتحاد الامم ، وليحقق اتحاداً طوعياً حراً .. كان لينين يدعو لحق الانفصال ولكنه كان ضد الانفصال ، وكان يؤيد حق الامم المظلومة في بناء كيانها القومي ، ولكنه كان يقاوم أية روح قومية ضيقة متعصبة . لقد جعل لينين قضية الثورة الاشتراكية ، فوق قضية الثورة الوطنية الديموقراطية ، ولكنه أراد أن يندمجا معاً ، والا تقف الثانية عقبة في وجه الاولى .

ويمكن أن نوجز أسباب مقاومة لينين لشعار الاستقلال الثقافي القومي الذاتي بما يلي :

أولاً : إن رفع هذا الشعار يقود إلى تقسيم الامم ، وبالتالي إلى تحطيم وحدة البروليتاريا فيها ، وتقريب البروليتاريا من كل قومية إلى برجوازيتها. وهذا يعني سيادة البرجوازية فكرياً وسياسيا [٢٥] .

ثانيا : كان لينين يرى أن اختلاط الامم وتمازجها خطوة تقدمية ، وان النكوص عنه خطوة إلى الوراء. وقد انتقد الذين «يقيمون الدنيا ويقعدونها » ضد« التمثلية » واصفاً إياهم بأنهم: « إنما هم اولئك اليهود الرجعيون التافهون الضيقو الافق الذين يريدون أن يعيدوا عجلة التاريخ إلى وراء ، أن يجبروها على السير ، لا من النظام القائم في باريس ونيويورك بل بالاتجاه المعاكس» [٢٦] .

وهذا لا يعني ، أن لينين يؤيد « التمثل » بالعنف ، التمثل الذي تفرضه امة قوية على اخرى ضعيفة ، فهو ضد كل تمثل قسري ، ولكنه يرى ان اختلاط الامم وتمازجها، الذي نشاهده في المدن الصناعية مثلاً ، والذي هو ثمرة لانتصار البرجوازية ، تقدم في اتجاه التاريخ .

---

٢٥ ـ لينين ، ملاحظات انتقادية حول المسألة القومية ، دار التقدم، موسكو ص ٨ و ٣٧ .
٢٦ ـ لينين ، المرجع السابق ، ص ١٩ .

ثالثاً : لم يكن لينين يرى أن « الاستقلال الثقافي غير الاقليمي» الذي يؤيده البوند والأحزاب اليهودية الأخرى مفيداً أو عملياً أو قابلاً للتطبيق . فهو لا يؤدي في نظر لينين : « إلا إلى أمر واحد ، هو تقسيم العمل المدرسي حسب القوميات ، أي تشكيل طوائف قومية متباينة في العمل المدرسي » (٢٧) . ولقد جاء لينين بمثل ، ليثبت خطل شعار « الاستقلالي الثقافي غير الاقليمي » . وهذا المثل مستقى من إحصائيات المدارس في بطرس بورغ سنة ١٩١١ . تبين هذه الاحصاءات « أن المدارس الابتدائية التابعة لوزارة (التعليم) العام تضم ٤٨٠٧٦ تلميذاً ، بينهم ٣٩٦ يهودياً ، أي أقل من واحد بالمائة . وتبين أيضاً أنه كان هناك تلميذان رومانيان وواحد جورجي وثلاثة أرمن ، الخ ... » ويتساءل لينين : فهل من الممكن وضع برنامج قومي « إيجابي » يشمل هذا التنوع في العلاقات والظروف ؟ (هذا مع العلم ، طبعاً ، ان بطرس – بورغ ليست أشد مدن روسيا « اختلاطاً » من حيث القوميات) . يبدو أن حتى الاختصاصيين في « الحذلقات » القومية ، كأصحابنا البونديين ، لا يستطيعون وضع مثل هذا البرنامج » (٢٨) .

وإذا كان لينين ينكر تحقيق مثل هذا الشعار ، بالنسبة لامم

---

٢٧ ـ لينين ، المرجع السابق ، ص ١٩

٢٨ ـ » » » ص ٢٠

يعترف بوجودها ، فمن بـــاب أولى أن ينكره على جماعـة لا يعتبرها أمة هي اليهود .

يقول لينين : « إن اليهود المقيمين في العالم المتمدن لا يشكلون أمة . فقد تمثلوا أكـــثر من غيرهم ، كما يقول كاوتسكي وباوير . كذلك لا يشكل اليهود القاطنون في روسيا وغاليسيا أمة ؛ فليسوا في هذين البلدين مع الاسف (لا لذنب منهم ، بل لذنب البوريشكيفتشيين) سوى فئة مغلقة معزولة . وهذا هو الرأي الثابت الذي يقول به اولئك الذين يعرفون التاريخ اليهودي يقين المعرفـــة ، ويأخذون بالحسبان الوقائع المذكورة أعـــلاه » [٢٩] .

اليهود ليسوا إذن أمة في نظر لينين ، إنهم في الغرب فئـة متمثلة ، وفي روسيا وغاليسيا فئة مغلقة معزولة. وعليه ، فحق تقرير المصير الذي يناضـــل لينين من أجله ، حق لا يشمـل اليهود .

ومنذ البدء لم يكن لينين مقتنعاً بفكرة « القومية اليهودية » ولقد هاجم هذه الدعوة ، وكان ممـــا كتبه في « الاسكرا » جريدة الحزب المركزية سنة ١٩٠٣ :

---

٢٩ ـ لينين ، المرجع السابق ، ص ١٩

« هي رجعية كليا ، لا عندما يدعو لها دعاتها « الصرحاء »
(الصهيونيون) ، ولكنها كذلك عندما تنطلق من شفاه هؤلاء
الذين يحاولون أن يمزجوها بأفكار الديمقراطية الاجتماعية
(البونديون). إن فكرة القومية اليهودية ضد مصالح البروليتاريا
اليهودية ، لانها تروج في صفوفها ، مباشرة أو بشكل غير
مباشر ، روحا معادية للتمثل ، إنها روح الغيتو » [٣٠] .

وكان لينين يصر دائما على أن : « الامة يجب أن تكون لها
أرض تتطور عليها ، وفي زماننا على الاقل ، وحتى يوسع اتحاد
عالمي كونفدرالي هذه القاعدة ، يجب أن يكون للأمة لغة
مشتركة » [٣١] . وكلا العاملين لا يتوافر لليهود .

وعندما قامت ثورة أكتوبر الاشتراكية بقيادة لينين ، أعيد
تنظيم الدولة السوفياتية ، وفقاً للشعار الذي رفعه لينين : «حق
الامم في تقرير المصير » . وكان « نداء السلام » الذي أعلنه
لينين أول وثيقة تعبر عن هذا الاتجاه السياسي بعد الثورة
مباشرة . وقد رفض هذا البيان الضم القسري وأيد حق الامم

---

30 - Lenin,collected works vol .7, p. 101 ,Progress Publishers , Moscow .

- Salo , Baron : The Russian Jew under Tsars and Soviets , The Macmillan Company 1967 , p. 205.

31 - Lenin : Collected Works , Vol .7, P . 99 .

في تقرير مصيرها [٣٢] .

وقد أعلنت الحكومة السوفياتية، حكومة العمال والفلاحين، في الخامس عشر من تشرين الثاني سنة ١٩١٧، بيــان حقوق شعوب روسيا الذي جاء في جزء منه :

« إن مجلس مفوضي الشعب قد صمم أن يؤسس نشاطاته، فيما يتعلق بمسألة القوميات في روسيا على المبادىء التالية :

١ — مساواة شعوب روسيا وسيادتها .

٢ — حق شعوب روسيا بحرية حق تقرير المصير، بما فيه الانفصال وتكوين دولة مستقلة .

٣ — إزالة كل الامتيازات والقيود القومية والدينية .

٤ — التطور الحر للأقليات القومية والجماعات الاثنية التي تقطن الاتحاد لسوفياتي [٣٣] .

كانت السياسة الجديدة تمثل وجهة النظر اللينينية في المسألة

---

٣٢ — ريد، جون، عشرة أيام هزت العالم، دار الطليعة — بيروت ص (٢٢٠ - ٢٢١) .

٣٣ —

I . Pisarev:The Population in USSR. Progress Publishers , Moscow , p . (62 - 63) .

القومية : حق تقرير المصير ، الذي يتضمن حق الانفصال وان لم يكن محبذاً . وكان انفصال فنلنده في اوائل كانون الأول بحضور ستالين ، وبقرار وقعه لينين وستالين معاً خير تعبير عن هذه السياسة (٣٤) .

واجتمع ، في الثامن عشر من شهر كانون الثاني سنة ١٩١٨ ، ستة من اليهود الشيوعيين ، وطالبوا بتعيين واحد منهم ، هو ديمانشتاين Dimanshtain ، مفوضاً لليهود . ولقد صدر قرار تعيينه مفوضاً بعد يومين . وفي اليوم الواحد والعشرين من الشهر ذاته ترأس المفوض الجديد اجتماعاً عاماً ضئيلاً ، حضره عدد من أعضاء البوند والأحزاب الأخرى . وقد استقبل بهتافات معادية مثل « يا بيروقراطي اليهود » و « يا رقيب اليهود » . وكان مما قاله ديمانشتاين : « إننا – كأميين – لا نسعى وراء أي مطالب قومية خاصة ، ولكننا نسعى وراء برامج بروليتارية فقط » .

وبعد أن أسس ثلاثة عشر فرعاً في الأقاليم ، عقد المؤتمر الأول في العشرين من اكتوبر سنة ١٩١٨ ، وضم واحداً وثلاثين شيوعياً ، وثلاثة وثلاثين مندوماً منتقى ، وقد أصدر المؤتمر

---

٣٤ – مرقص ، الياس ، مسألة القوميات في الاتحاد السوفياتي ، مجلة دراسات عربية ، السنة الاولى العدد الخامس ، ص ٢٦ .

قراراً جاء فيه :

« إن كل المؤسسات العاملة في الحي اليهودي ، مثل الجمعيات Communities وغيرها، لم يعد لها مكان بعد الآن في حياتنا.. وكل هذه المؤسسات والمنظمات مضرة بالمصالح الأساسية للجماهير اليهودية الواسعة ،التي يسكنونها بالاغنيات « الحلوة » للديمقراطية اليهودية المزعومة. ويستند العامل اليهودي على انتصار البروليتاريا خلال ثورة اكتوبر . وهو يقبض على السلطة بيديـــه ، ويعلن دكتاتورية البروليتاريا ضمن المجتمع اليهودي » .

وصدر، في حزيران من سنة ١٩١٩ ، قرار وقعه اجوزسكي وستالين مفوض القوميات ، حلت بموجبه المنظمات الملية اليهودية على أساس أنها تستقطب أعداء الثورة ، وتبث روحاً غير عمالية .

وبينما تبنت الدولة سياسة تجميع اليهود في مناطق يستطيعون تكوين أغلبية فيها، كان القادة الرسميون اليهود يزدادون اقتناعاً، بأن اليهود، خارج هذه المناطق ، سيتمثلون إن آجلاً أو عاجلاً.

وابتداء من سنة ١٩٢١، أخذت تنشأ مجالس شعبية يهودية ، حيث توجد تجمعات يهودية. ولكن اليهود الذين كانوا يشاركون في انتخابات مثل هذه المجالس لم يزيدوا عن ١٤ بالمائة من المجموع. وفي سنة ١٩٢٠ تحولت مفوضية اليهود الى دائرة تابعة الى مفوضية شؤون القوميات .

ونشرت مجلة « المراسلات العالمية » لسان الأممية الثالثة قراراً اتخذته الأممية سنة ١٩٢٢ ، بمناسبة تقـدم الحزب الشيوعي الصهيوني في بلاد اوروبة الشرقية مطالباً بالانضمام لها ، ينص على رفض الطلب المذكور ، معللاً الرفض بأن الحزب يقوم على حق اليهود في تكوين دولة ، وهـذه الدولة لن تـكون إلا على حساب قومية أخرى . ولهذا رفضت الأممية طلبه واتهمته بأنه حزب برجوازي صغير وليس شيوعياً ، ووجهت نداء لمناضليه كي ينخرطوا في بروليتاريات بلادهم من أجل النضال في سبيل الثورة الاشتراكية *

ومع وضوح آراء لينين بصدد التمثل من جهـة والتحرر القومي من جهة أخرى ، فإن الخطوات التي بدأت في عهده من أجل فصل اليهود عن المجتمعات السوفياتية المندمجين فيها وانشاء

---

* قام بمراجعة المجلة المذكورة الصديق العفيف الاخضر ، وهو شيوعي من الجزائر . ويذكر لي في احدى رسائله ما يلي : « عندما حدثت بعض الشيوعيين العرب القياديين بهذا الموضوع (يشير للقرار) فإنهم ما شكوا برأيي فقط ... بل ضحكوا ساخرين : اسرائيل موجودة بقوتها ومن الجنون البحث عن ازالتها ، كدولة طبعاً لاكسكان : حيث لا أحد يفكر بهذا غير الشقيري». وبالطبع في هذه الحالة فقط يرفض بعض الشيوعيين العرب التمسك بالنصوص والاهتـداء بها ، لانها لمصلحة بـلادهم ولانهـا صحيحـة ، أما فيما عدا هذه الحالة فالنصوص مقدسة . ولا شك ان الشيوعيين العرب، قياديين وغير قياديين، يتجنون على الحقيقة الواضحة عندمـا يقولون لا احد يفكر بالتحرير غير الشقيري .

أنواع من الادارات الذاتية لهم ، في ظل الحكم السوفياتي ، لم تكن منسجمة مع فلسفة لينين . فلينين كان واضحاً : أنه مع التمثل عندما يكون هنالك اختلاط بين الشعوب ، ومع التحرر عندما يكون هنالك شعب يستعبد شعباً آخر. ولما كان اليهود في روسيا ما بعد الثورة ليسوا شعباً، وليسوا قومية ، ولم تكن لهم هوية سياسية أو اجتماعية محددة ، فقد كان واجباً أن يطبق عليهم مبدأ التمثل اللينيني .. وهذا ما حاول بعض الشيوعيين من اليهود ان يتجاوزه – كما سنرى – ولكنهم فشلوا ، لأسباب تتعلق باليهود من جهة ، وأخرى تتعلق بالنظام السوفياتي من جهة ثانية .

ولكن ما حدث بالنسبة لليهود ، بعد ثورة اكتوبر ، وخلال العهد اللينيني ١٩١٧ – ١٩٢٤ يمكن ان يفسر بعاملين :

الأول : ان التمثل الذي كان يتحدث عنه لينين هو تمثل طوعي اساساً ، أي ليس تمثلاً مفروضاً بالقوة . ومن هنا لم يكن منسجماً مع مبادىء لينين فرض انصهار قسري على اليهود أو غيرهم .

الثاني : ان الحكم البلشفي لجأ بعد ثورة اكتوبر الى تنمية القوميات التي كانت خاضعة للأمبراطورية الروسية ؛ سياسياً وثقافياً . وفي مثل هذا الجو جرى العمل على بعث قوميات شبه منقرضة وعلى انشاء جمهوريات وحكومات لشعوب شرقية

متخلفة مثل التتر والبشكير والقرغيز . وأعلن ستالين في المؤتمر العاشر للحزب سنة ١٩٢١ : « ان الحزب الماركسي إذ يؤمن (برسوخ الأمم واللغات القومية) فهو (ينبذ سياسة التمثل والدمج القومي نبذاً تاماً بوصفها سياسة معادية للشعب ومعادية للثورة) »[٣٥] . وكان اليهود من جملة الجماعات التي حاولت الدولة الجديدة ان تتيح لها فرصة النمو قومياً ، ضمن الدولة الاشتراكية .

ولكن هل كان اليهود أمة ؟

لقد أجاب لينين على هذا السؤال بالنفي ، وأجاب ستالين ايضاً عليه بالنفي من قبل . ومع هذا فقد جرت محاولة لاعتبار اليهود أمة ولاعطائهم الحق الذي اعطي للأمم الأخرى : حق الوجود القومي ، ضمن بعض الحدود الخاصة الناتجة عن عدم تجمعهم في تكتل بشري واحد .

---

٣٥ ـ المرجع السابق .

٣ ـ تروتسكي : ضد الانفصالية اليهودية

كان تروتسكي يهودياً ، ولكنه كان ، حتى صعود الموجة النازية ضد يهود ألمانيا ، ضد الروح الانفصالية اليهودية . وقد أوضح موقفه هذا في مؤتمر حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي المنعقد في تموز ١٩٠٣ . كانت المناسبة إثارة مطالب البوند . وقد اتفق جماعة الاسكرا على أن يرد اليهود منهم على جماعة البوند . وكان مارتوف ، أحد مؤسسي البوند ، بادىء الهجوم ، نيابة عن جماعة الاسكرا ، وتبعه تروتسكي ، فتحدث نيابة عن جماعة الاسكرا ذوي الاصل اليهودي ، وأقذع في مهاجمة البونديين ، وتفنيد مطالبهم حتى استثار غضبهم ، واضطرهم إلى طلب الحماية من رئيس الجلسة . وكان مما قاله تروتسكي : « إن ما هو مطروح أكثر من قضية يهودية ، إن البوند بمطالبته بالاستقلال الذاتي ضمن الحزب ، على أن يكون له حق انتخاب لجنته المركزية ، كان في الواقع يقدم السابقة للآخرين . وإذا ما أعطى الحزب مثل هذا الامتياز

للبوند ، لا يستطيع أن يرفض الطلبات المماثلة للجماعات الأخرى . وعليه عندئذ أن يهمل فكرة التنظيم المتكامل ، وان يحول نفسه إلى اتحاد من الأحزاب والجماعات ... »

واعتبر تروتسكي أن طلب البوند ، باعتباره الوكالة الوحيدة الممثلة لليهود ، دليل على « الانفصالية اليهودية » التي يرفض الحزب الخضوع لها ، والتي ينبثق منها المطلب الآخر للبوند : « الاستقلال الذاتي الثقافي » . وكان تروتسكي يرى أن الاشتراكية معنية بالعصف بالحواجز القائمة بين الأجناس والاديان والقوميات ، ولا تستطيع أن تحرك يدها من أجل وضع مثل هذه الحواجز .

وآمن تروتسكي ، مثل مارتوف واكسلرود وغيرهما من الاشتراكيين ذوي الاصل اليهودي ، بتمثل اليهود ، وكان يعتقد اعتقاداً جازماً بأنه ليس هنالك من مستقبل لليهود كمجتمع منفصل . وحل المشكلة اليهودية ، في نظر تروتسكي ، « ليس في تأسيس دولة ، وليس في تأسيس دول يهودية ضمن دول أخرى غير يهودية ، ولكن في إعادة تركيب المجتمع تركيباً أممياً متماسكاً » .

وقد هاجم تروتسكي الحركة الصهيونية ، كما هاجم البوند . وكان المقال الذي كتبه في العدد ٥٦ من الإسكرا الصادر بتاريخ ١ يناير سنة ١٩٠٤ ، يحوي هجوماً قاسياً على الصهيونية ،

ويتهمها بالإفلاس . غير أن آراء تروتسكي هذه التي تمسك بها كل حياته ؛ تعرضت لهزة بعد الجرائم التي ارتكبتها النازية ضد اليهود ؛ فقد خفف هجومه على الصهيونية ، وعدل في مقابلة أجرتها معه صحيفة « إلى الأمام » اليهودية الأمريكية عن اعتقاده بفكرة تمثل اليهود ، التي كان يعمل من أجلها ، ويأمل أن تتحقق . ولكنه أكد في هذه المقابلة أيضاً : «بان الصهيونية بذاتها سوف لا تحل المشكلة ، وقد يكون ، حتى في ظل الاشتراكية ، من الضروري لليهود أن يقيموا على أرض متفصلة» (٣٦) .

---

36 - Isaac Deutsher , The Prophet Armed , O X F . University Press , London P . 75.

Isaac Deutscher , The Prophet Outcast , (1929 - 1940) OXF . Uni . press , 1963 P . 154 , 368 - 9 .

٤ ـ ستالين : لا أمة يهودية

كتب ي . ستالين سنة ١٩١٣ دراسته المشهورة : « الماركسية والمسألة الوطنية » التي ناقش فيها القضية القومية مناقشة وافية . وتعتبر هذه الدراسة من مراجع الماركسية الأساسية في المسألة القومية . وما يهمنا في هذه الدراسة الآن ، هو موقف ستالين فيها من المسألة اليهودية ، نظرياً وعملياً .

لقد استفاض ستالين ، كما فعل لينين ، في مناقشة البوند والأحزاب اليهودية الأخرى في هذه الدراسة ، لأنه لم يكن معنياً بطرح مفهوم نظري من القضية القومية ، بمقدار ما كان معنياً بتحديد موقف سياسي من مطالب الجماعات والأحزاب القومية المختلفة ، وعلى رأسها البوند .

ونستطيع أن نعرف موقف ستالين من المسألة اليهودية ، وادعاء وجود أمة يهودية ، من مراجعة تعريفه للأمة . فالأمة ، في نظر ستالين :

« هي جامعة أناس ثابتة تألفت تاريخيـاً ، نشأت على أساس اللغة والارض والحياة الاقتصادية والخصائص النفسية التي تتجلى في جامعة الثقافة » [٣٧] .

وهذا التعريف الواضح ينفي نفياً قاطعاً إمكانية وجود أمة يهودية ، لعدم توافر كل الشروط الواردة فيه لليهود . فاليهـود ليسوا جامعة أناس ثابتة ، ولا تربطهم جامعة لغة وأرض وحياة اقتصادية وخصائص نفسية . إنهم أشتات من الناس ، يتكلمون لغات مختلفة ، ويقطنون بلداناً مختلفة ، ويختلفون في خصائصهم النفسية اختـلاف الخصائص النفسية عنـد الأمم الـتي يعايشونها .

وكان طبيعياً أن يصل ستالين ، انطلاقاً من هذا التعريف ، إلى عدم اعتبار اليهود أمة .

ويرد ستالين على باور الذي يعتبر اليهود أمة قائلاً :

« يتكلم باور عن اليهود بوصفهم أمة ، مع أنهم « لا يملكون البتة لغة مشتركة » ، ولكن أية « جامعة مصير » ، وأي ترابط

---

٣٧ ـ ستالين ، الماركسية والمسألة الوطنية ، دار التقـدم ، موسكو ، ص ١١ .

وطـــني يمكن التحـــدث عن وجودهما ، مثلاً ، عنـــد اليهود الجورجيين والداغستانيين والروس والأمريـكان الذين يعيشون منفصلين بعضهم عـــن بعض كل الانفصال ، والذين يقطنـــون أراضي مختلفة ، ويتكلمون بلغات مختلفة ؟

إن اليهود المذكورين يحيون بلا شك حياة اقتصادية وسياسية عامة ، مع الجورجيين والداغستانيين والروس والأميركان ، وفي جو ثقافي عام مع هؤلاء . وليس باستطاعة هذا الا يترك سمتـــه الخاصة على طابعهم الوطني ، وإذا بقي لدى هؤلاء شيء عام فهو الدين ، وأصلهم المشترك ، وبعض بقايا الطابـع الوطني ، كل هذا لا ريب فيه . ولكن كيف يمكن الكلام جدياً عن أن الطقوس الدينية الجامـــدة ، والبقايا البسيكولوجية المتبخرة تؤثر على « مصـــير » اليهود المذكورين تأثيراً أقوى من تأثـــير الوسط الاجتماعي – الاقتصادي والثقافي الحي الذي يحيط بهم : فعلى افتراض كهذا فقط يمكن الكلام عن اليهود بوجه عام بوصفهـــم أمة واحدة » [٣٨] .

ويعود ستالين في القسم (٥) من دراسته هـــذه المعنون : « البوند قوميته وانفصاليته » إلى هذه الحقيقة ، محاولاً أن يزيد

---

٣٨ – ستالين ، الماركسية والمسألة الوطنية ، دار التقدم ، موسكو ، ص ١٥ .

من إيضاحها ؛ عن طريق نقض أفكار باور أو تطويرها . وهو هنا يرى أن اعتقاد باور باستحالة بقاء اليهود أمـــة لأنهم « لا يملكون منطقة محددة للاستيطان» « صحيح من حيث الجوهر» ، « ولكنه لا يعبر عن كل الحقيقة ، فالقضية ، قبل كل شيء ،هي أن اليهود لا يملكون فئة واسعة مستقرة ، مرتبطـة بالارض ، توطد الامة توطيداً طبيعياً ، ليس فقط كعمودها الفقري ، بل كذلك كسوقها الوطني . من الخمسة أو الستة ملايـين من اليهود الروس ٣ أو ٤ في المائة فقط مرتبطون بشكل ما بالزراعـة . وال ٩٦ في المائة من الباقين مشغولون بالتجارة والصناعـة وفي مؤسسات المدن ، ويعيشون في المدن بوجه عام ، وعلاوة على ذلك فهم مبعثرون في روسيا ، ولا يشكلون الاكـــثرية في أي مقاطعة كانت » [٣٩] .

واستغرب ستالين طلب الاستقـــلال الذاتي لليهود ، على اعتبار أنهم أمـــة « لا يزال وجودها بحاجة إلى الإثبات » [٤٠] .

ولم يفت على ستالين أن يكتشف العلاقة بين المناداة بالاستقلال

---

٣٩ ـ ستالين ، الماركسية والمسألة الوطنية ، دار التقـدم ، موسكو ، ص ٥٧ .

٤٠ ـ ستالين ، الماركسية والمسألة الوطنية ، دار التقـــدم ، موسكو ، ص ٥٨ .

الذاتي الثقافي القومي وبين وضع اليهود . فهذا الشعار ملائم جداً لليهود المشتتين ، « لان من غير الممكن – كما يقول ستالين – حتى أن يدور الحديث عن استقلال ذاتي سياسي إقليمي لليهود ، بسبب أن هؤلاء لا يملكون أراضي كاملة محددة »[٤١] .

وكان ستالين ، منذ البدء ، منسجماً مع لينين في مواقفه النظرية والسياسية من البوند والاحزاب اليهودية الاخرى ، ومن مطالب هذه الاحزاب المتعلقة بالمسألة القومية ، وعلى رأسها موضوع الاستقلال الذاتي الثقافي القومي . ولم يكن هنالك اختلاف في المنطلقات أو المبررات .

أصبح ستالين مفوضاً لشؤون القوميات بعد ثورة أكتوبر . وقد مرت المسألة القومية بتطورات مختلفة خلال المرحلة التي كان فيها يحتل هذا المنصب . وقد أشرت إلى التطورات التي طرأت على اليهود عند الحديث عن موقف لينين من المسألة اليهودية . وكان الموقف بشكل عام يتلخص في أن الحكم الجديد حاول أن يدمجهم في الحياة العامة ، من خلال رفع كل القيود التي

---

٤١ ـ ستالين ، الماركسية والمسألة الوطنية ، دار التقدم ، موسكو ، ص ٦٠ .

كانت مفروضة عليهم ، ومساواتهم بغيرهم من المواطنين ، وتحريرهم من التقاليد الدينية والاجتماعية ، الممعنة في التحجر والانغلاق .

كان العهد الجديد يريد أن يجعل من اليهودي مواطناً ، يتمتع بالمساواة التامة . ولم يتمثل هذا في البيان الذي أشير اليه سابقاً فقط ، بل تمثل في وجود عدد من الشخصيات اليهودية على رأس الحكم الجديد ، وعلى رأس هؤلاء تروتسكي وكامينيف وزينوفييف وكاغانوفيتش وآخرين .

واهتم الحزب بعد الثورة سنة ١٩١٧ ، بأمر اليهود فاتخذ عدة قرارات خاصة لمساعدتهم . ومن هذه القرارات قرار ينص على حجز أنصبة من الشواغر في المشاريع الصناعية للشباب اليهود . وكانت منظمة الشبيبة الشيوعية تختار الآلاف من الشبان اليهود وترسلهم للانضمام إلى الطبقة العاملة.

وبالإضافة إلى ان المدارس والجامعات قد فتحت لهم ، فإن مدارس فنية متخصصة ودورات افتتحت جرى التدريس فيها باليديشية .

وفي سنة ١٩٢٤ قررت هيئة الرئاسة ، بتشجيع من كالينين رئيس الجمهورية نفسه ، إنشاء لجنة خاصة ، سميت الكومزيت،

وظيفتها إرشاد اليهود ومساعدتهم على العودة إلى العمل في الأرض . ويبدو أن الأمر كان يلقى حماسة واستحساناً فنشأت منظمة تطوعية الى جانب الكوميزت باسم الاوزيت ؛ أي منظمة الأرض للشعب اليهودي الكادح .

وضعت الدولة تحت تصرف الكوميزت مساحات واسعة من الأرض في أوكرانيا الجنوبية وفي القرم ، على أن تخصص لها أراضٍ أخرى فيما بعد .

ولقد وضعت اللجنة مشروعاً لإسكان مائة ألف أسرة في هاتين المنطقتين . وبدأت عشرات الآلاف من العائلات اليهودية بالهجرة الى المناطق الجديدة .

وقبل نهاية العقد الثالث انشئت ثلاث مقاطعات قومية يهودية في خيرسون ودنيبر وبيتر وفلسك واثنتان في القرم (٤٢) .

حدث سنة ١٩٢٧ تطور جديد على المسألة اليهودية في الاتحاد السوفياتي . فقد دعا الشيوعيون اليهود الذين استقطبتهم منظمة

---

٤٢ ـ صفوة ، نجدة فتحي: اليهود والصهيونية في علاقات الدول الكبرى، سنة ١٩٦٧ ص ٣٦

Rabinovich, Solomon : Jews in The Soviet Union, P. 47.

« الكومزت komzet »* الاجتماعيـــة إلى تجميع اليهود المقيمين داخل الاتحاد السوفياتي، والمقيمين خارجه. وأعلن سيمون ديمانشتاين في آذار من سنة ١٩٢٨، عند بدء المشروع، ما معناه أن الهدف من حشد اليهود ليس تحقيق « أغراض قومية »، « ولكن من أجل الاهداف السلمية المتعلقة بالبناء العام للاشتراكية في بلادنا. وستتحول الجماهير اليهودية، في ظل ظروف ثقافية واقتصادية اسلم إلى بناة أكفاء مثاليين للحياة الجديدة، وعلينا ان نتقدم نحو هذا الهدف بنشاط، متجاوزين كل الاتجاهات القومية »[٤٣].

ومع هذا فقد استخدم قادة (الكومزت) التوجيه القومي في استثارة اليهود، سيان كانوا في روسيا أو خارجهـــا. وكانت محاولة انشاء دولة في الشرق الأقصى تبدو وكأنهـــا ترمي إلى تخفيف سيطرة الصهيونية على اليهود. وقـــد ادينت الصهيونية، واعتبرت اداة طيعة في يد الاستعمار البريطاني.

اما المنطقة التي اختارها قـــادة (الكومزت) بعد بحث ومقارنة، فهي المنطقة التي تمتد على ضفاف نهر الآمـــور ورافديه بيرا وبدزان هـــذه المنطقة الواسعة غير المأهولة.. والتي تبلغ مساحتها ٣٥،٨٠٠ كلم مربعاً**. وميزة هذه المنطقة ان حشد

---

* Commission for rural placement of Jewish Tiolers.

43 - Salo W. Baron, Ibid. p. 231

** رابينوفتش، سلمون: اليهود في الاتحاد السوفياتي، وكالة انباء نوفوستي (بالانجليزية) ص ٢٥.

اليهود فيها ، لا يقتضي الحلول محل شعب آخر ، كما هي الحال في فلسطين ؛ إذ لم يكن سكان هذه المنطقة يزيدون عن ثلاثين ألفاً . وقد حاول الدعاة السوفيات الاستفادة من هذا التمايز . وكتب م . سيم في كانون الأول من سنة ١٩٣٤ : « ولهذا تقوم في فلسطين المذابح بين العرب واليهود . إن الوفود العربية تقف أمام المندوب السامي ضد اليهود ، وتجادل الوفود اليهودية ضد العرب. ولقد كان الوضع في المؤتمر الأول ليهود المنطقة اليهودية ذات الحكم الذاتي عكس ذلك ، إذ حضرت وفود عمالية من المزارع الجماعية ، من كل شعوب الاتحاد السوفياتي . وهكذا فقد خلقنا نحن موجة جديدة من الاخوة العالمية . لهذا السبب فإن الصهيونية قاعدة للثورة المضادة والردة بين اليهود، وبؤرة التقاء كل فاشييهم السود وعناصرهم الكهنوتية ، بينما تتركز حول المنطقة اليهودية ذات الحكم الذاتي كل عواطف العناصر التقدمية والثورية بين الجماهير اليهودية في البلدان الرأسمالية » (٤٤).

كان تنفيذ المشروع سيبدأ سنة ١٩٢٩ ، ومع هذا فقد وصلت أول دفعة من « المعمرين » اليهود سنة ١٩٢٨ . كان عدد هؤلاء ٩٥٠ شخصاً عاد منهم ٦٠٠ . ووصل في السنة الثانية (١٩٢٩) ١٨٧٥ عاد منهم ١١٢٥ ، وفي السنة الثالثة ٢٥٦٠ عاد منهم ألف ، وفي السنة الرابعة ٣٢٥٠ عاد منهم ٧٢٥ ، وفي

---

44 - Salo W . Baron , Ibid P . 232 .

سنتي (١٩٣٢ – ١٩٣٣) ١١٠٠٠ عاد منهم ٨٠٠٠.ولقد كان عدد الواصلين في ست سنوات ١٩،٦٣٥ عـاد منهم ١١،٤٥٠ .

أعلنت بيرا بدزان مقاطعة يهودية ذات حكم ذاتي سنة ١٩٣٤ وألقى كالينين خطاباً في تلك المناسبة جاء فيه :

« ان إنشاء المقاطعة اليهودية ذات الحكم الذاتي حدث هام جداً ، إذ إن تركيز عدد كبير من السكان اليهود في وحـدة حكومية سيساعد على رفع الخدمات الثقافية للجماهير إلى أعلى مستوى ممكـن ، كما أنه سيعطي الشعب اليهودي كل صفات الأمة ، ويتيح الفرصة لمزيد من الإزدهار لثقافة اشتراكية في محتواها ويهودية في شكلها ... وستكون بيرا بدزان خلال عشر سنوات مركزاً أساسياً لجماهير اليهود »[٤٥] .

ولقد كان من المفروض أن يستقر في المنطقة ، في السنوات (١٩٣٤ – ١٩٣٧) خمسون ألف يهودي ، ولكن عدد السكان اليهود كان في ٣/٦/٣٧ ، ثمانية عشر ألفاً فقط من ستة وسبعين ألفاً ، أي بنسبة ٢٣،٨ ٪ فقط ، على الرغم من أن الدولة كانت قد أعلنت بأن المنطقة ستصبح منطقة حكم ذاتي يهودي . وقـد حدد لذلك سنة ١٩٤٢ ، وكان المطلوب أن يصبـح اليهود مائة ألف .

---

٤٥ ـ صفوة ، نجدة فتحي: اليهود والصهيونية في علاقات الدول الكبرى ١٩٦٧ ، ص ٣٩ .

والغريب أن المشروع تضاءل ثم تلاشى في سنوات (١٩٣٤ـ ١٩٣٧)، وهذه السنوات التي واجه فيها اليهود في المانيا كابوس النازية، والتي تعرّض خلالها مشروعهم الصهيوني في فلسطين إلى مقاومة ضارية جعلته مهدداً بالفشل.

هنالك عدة أسباب لفشل مشروع بيرا بدزان:

الأول: موقف الحزب والدولة في الاتحاد السوفياتي من المشروع: يبدو أن موقف الحزب والدولة لم يكن جاداً وفعالاً. وهذا لا يعني أن القرار الذي اتخذ بجعل منطقة بيرا بدزان منطقة حكم ذاتي لليهود، كان كاذباً، بل يعني أن الحزب والدولة لم يبذلا الجهود اللازمة لوضعه موضع التنفيذ؛ كجزء من التخطيط السكاني. ويكفي أن نعرف أن ستالين أجرى تنقلات سكانية واسعة، ليثور في ذهننا السؤال التالي: ألم تكن دولة ستالين قادرة على حشد اليهود في منطقة بيرا بدزان لو كانت راغبة؟

يبدو ان ستالين لم يكن متحمساً للمشروع، وإن كان ليس ضده.

ويقول ب.ز. جولدبرج في كتاب، «المسألة اليهودية في الاتحاد السوفياتي، تحليل وحل»: «إن ستالين ساير الأعضاء

الآخرين في اللجنة المركزية لاعتبارات عملية ، مع ان قلبه لم يكن مع المشروع، ولم يكن عنده إيمان به » ص(١٩٥). ولكن يبدو أيضاً أن الفتور أحاط بالمشروع عندما بدأت حركة التطهير، في السنوات (١٩٣٦ — ١٩٣٨) وأتت على معظم قادته ، ومن بينهم ديمانشتاين .

الثاني : موقف اليهود من المشروع : يبدو ان اليهود داخل الاتحاد السوفياتي خاصة وخارجه ، على الرغم من الحماسة الجزئية والمحدودة جداً في بعض الأوساط للمشروع، لم تستثر حماستهم استثارة كافية ، ولم يكن تجاوبهم من مستوى ملائم . ولذلك فقد كان تدفق المهاجرين محدوداً جداً ، وقد عاد قسم كبير من الوافدين . ويعود إحجام اليهود ، وخاصة داخل الاتحاد السوفياتي ، عن استغلال الفرصة إلى سبب رئيسي واحد ، هو ان المشروع كان يستهدف إنشاء منطقة حكم ذاتي يهودية اشتراكية ، في ظل الدولة السوفياتية . وكان قسم كبير من اليهود ، وعلى رأسهم كهنتهم ووجاهاتهم وعوامهم (يناصب الحكومة السوفياتية العداء ، لأنها أرادت أن تجعل منهم أمميين اشتراكيين ، وان تجردهم من « يهوديتهم المتحجرة » ، المتمثلة في طبيعة تكوينهم الاجتماعي والثقافي . كان اليهودي يريد أن يظل يهودياً على طريقته ، وكانت الدولة تريد أن تجعل منه مواطناً عادياً ، كانت تريد أن تتمثله ، حتى عندما كانت توافق على خلق منطقة يهودية ذات حكم ذاتي . ولم يكن

اليهودي يريد أن يصبح مواطناً سوفياتياً ، ولا أن يكون له حكم ذاتي سوفياتي ، ولهذا رفض المشروع الذي اقترحه ،وعمل من أجل تحقيقه رفاقه اليهود الشيوعيون الذين كانوا ، على قلتهم اكثر استعداداً من اليهودي العادي للخروج من قوقعة اليهودي التقليدية .

الثالث : موقف الحركة الصهيونية . كان الصهيونيون يقاتلون من أجل « استعمار » فلسطين ، وكان نجاح مشروع بيرا بدزان تهديداً لحركتهم . ولذلك فقد كان من غير المتوقع أن ينظر اليه الصهيونيون بعين الرضا ، مع أن وايزمن « حيّى » المشروع كتحول بناء في حياة اليهود السوفيات ، واعتبره « محطة » في الطريق إلى الوطن اليهودي في فلسطين » .

الرابع : ظروف وعوامل أخرى . لعبت ظروف وعوامل أخرى دوراً في إحباط المشروع . وهذه الظروف والعوامل هي :

ا — بعد المنطقة عن روسية الاوروبية .

ب — عدم وجود الطرق والمواصلات .

ج — مناخ المنطقة القاري .

د — عدم توافر التخطيط والتمويل اللازمين .

هـ ــ كون اليهود من سكان المدن وانقطاع أغلبيتهم عـــن الزراعة منذ أمد طويل*.

و ــ كانت سنوات (٢٩ ــ ٣٢) من سنوات البنـــاء في الاتحاد السوفياتي . وكان اليهود من ذوي الخبرات الفنيـــة والادارية ، مما يسرّ لهم مجال العمل ، وجعل الدولة في حاجـة إليهم .

وتثير بعض المراجع الصهيونية أسباباً أخرى مثل يقظـــة الروح القومية في الاتحاد السوفياتي بعد وصول النازيـــين إلى الحكم ، وتخوف السوفيات من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي يثيرها القادمون اليهود من خارج الاتحـــاد السوفياتي . وتؤكد المصادر الصهيونية أن الاتحاد السوفياتي لم يفتح أبوابه ليهود المانيا الذين اضطهدتهم النازية ، على الرغم من رغبة بعضهم في الهجرة اليه ، كما أن اليهود الذين جاءوا من بولندا لم يسمـح لهم بالوصول إلى منطقة بيرا بدزان .

وعندما بدأت تخيم أشباح الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٨ ، حلت الحكومة السوفياتيـــة الكومزيت والاوزيت ، واحيلت

---

* - Levy,Hyman : Jews and National question Hillway pub . Co , 1958 London P .76

أمور الهجرة إلى بيرا بدزان إلى قسم الهجرة في منظمة البوليس السري (N.K.V.D) ، وأغلقت الجريـــدة اليديشيـــة (Birobidjaner Shtern) والمنشورة الأدبية (Forport) وأغلق معهد تدريب المعلمين

وجرت ، بعد الحرب العالمية الثانية ، محاولات لإعــــادة الحياة إلى مشروع بيرا بـــدزان . وقد صدر قرار عـــن مجلس السوفيات الأعلى في ٢٦ / ١ / ١٩٤٦ دعا لتجديد الجهود مـــن أجل تطوير المنطقة اليهودية ذات الحكم الذاتي . وكـــان وضع اليهود مناسباً،ذلك انظروفهم الاقتصادية ساءت بسبب جلائهم عـــن مناطق سكنهم خلال الحرب ، وكان الوضع في بيرا بدزان قد تحسن كثيراً عن اوائل الثلاثينات .

وبادرت الدولة إلى اعادة الجريدة اليديشيـــة ، واصدرت منشورة ادبية بأسم « بيرا بدزان » ، وجرى التخطيط لافتتاح مدارس باليديشية .

كانت حماسة اليهود السوفيات أشد هـــذه المرة ، وتطوع للذهاب فنانون وموسيقيون واطباء ، وبـــدأ الحديث عن انشاء « جامعة » يديشية تكون الاولى في العالم .

وطاف وفد من ممثلي يهود بيرا بدزان المدن السوفياتيـــة ، ذات الجاليات اليهودية ليستثير حمـــاسة اليهود بالحديث عـــن

منجزات بيرا بدزان ، وليطلب مساهمتهم في بناء المنطقـــة اليهودية ذات الحكم الذاتي . وكان الوفد يستقبل استقبالاً رسمياً أينما حل . وقدمت الدولة تسهيلات للراغبـين في السفر (٧٠٠ روبل نقداً ، وتذكرة سفر بالقطار) . وكان الوافدون يجدون أماكن معدة السكن ، ويهيأ لهم العمل ، وتـــدفع لهم سلفة عشرة آلاف روبل ، تسترجع خلال عشر سنوات . وكان مـن نتيجة هذه السياسة أن وصل في سنتين أكثر مما وصل خـــلال الثمانية عشر عاماً السابقة .

ولكن حركة الهجرة ، ما لبثت أن أوقفت ، وبدأ الحديث عن علاقات تجسس مع الخارج يقيمها اليهود السوفيات ، وعـن محاولة لجعل بيرا بدزان قاعدة معاديـــة للاتحاد السوفياتي . وعزلت بيرا بدزان منذ سنة ١٩٤٩ عن العـــالم .

انخفاض عدد اليهود في الحزب والدولة

شهد العهد الستاليني انخفاضاً في نسبـــة الأعضاء اليهود إلى نسبة أعضـــاء الحزب . فلقـــد كانت نسبة الأعضـــاء والأعضـــاء المرشحين اليهود في الحزب ٥٫٢ ٪ سنة ١٩٢٢ ، فانخفضت سنة ١٩٢٧ إلى ٤٫٣ ٪ . وكانت نسبة اليهـــود إلى مجموع السكان حينذاك ١٫٨ ٪ . ولما كان معظم أعضـــاء الحزب من المدن ، وكان اليهود سكان مدن ، فإن هذه النسبة لا تبدو غير عادية .

ويعطي الجدول رقم (١) فكرة عن نسبة السكان اليهود في المدن ونسبة أعضاء الحزب سنة (١٩٢٦ - ١٩٢٧) .

جدول رقم (١)

نسبة اليهود بين سكان المدن وفي الحزب

اسم المنطقة	نسبة اليهود ضمن سكان المدن (إحصاء ١٩٢٦)	نسبة اليهود في الحزب (إحصاء الأعضاء ١٩٢٧)	
		أعضاء	مرشحون
الاتحاد السوفياتي	٨٫٢	٤٫٩	٣٫٢
روسيا	١٫٣	٢٫٧	١٫٤
اوكرانيا	٢٢٫٧	١٣٫١	١٠٫٠
روسيا البيضاء	٤٠٫٢	٢٦٫٦	١٨٫٦

ويكشف هذا الجدل أن نسبة الأعضاء والمرشحين من اليهود في الحزب أعلى قليلاً من نسبة السكان اليهود إلى باقي السكان .

ويكشف الجدول رقم (٢) عدد اليهود الذين يحتلون مناصب عليا في الحزب والدولة سنة (١٩٢٥ - ١٩٢٦).

جدول رقم (٢)

عدد اليهود الذين يحتلون مناصب عليا ونسبتهم

	مجموع ممثلي المناصب	اليهود العدد	اليهود النسبة
اللجنة المركزية			
ـ الأعضاء والمرشحون	١٠٤	١١	١٠٫٦
لجنة الرقابة المركزية			
ـ الأعضاء والمرشحون	١٦٢	١٣	٨
رئاسة االجنة التنفيذية العليا (جمهوية روسيا السوفياتية الاتحادية الاشتراكية)	٣٧	٢	٥٫٤
مجلس مفوضي الشعب (الاتحاد السوفياتي)	١٢	—	—
مجلس مفوضي الشعب (جمهورية روسيا السوفياتية الاتحادية الاشتراكية)	١٤	—	—
رؤساء لجان الحزب المركزية واللجان التنفيذية المركزية ورؤساء اللجان التنفيذية المحليـة	٨٨	١	١٫١
رؤساء المحاكمة المحلية	٦٦	٤	٦٫١
رؤساء التكتلات الصناعية	٥٤	٤	٧٫٤
قادة منظمات التعاون المركزية	١٩٤	٢١	١٠٫٨

ولكن هذه النسب أخذت تتضاءل فيما بعد، كما يبين **الجدول** رقم (٣) .

الجدول رقم (٣)

اليهود في المجالس السوفياتية العليا (في جمهوريات الاتحاد كل على حدة) [٤٦] .

اسم الجمهورية	أعضاء مجالس السوفيات المجموع	اليهود العدد	اليهود النسبة	نسبة اليهود بين السكان
	٧٢٧	٣٠	٤و١	٠و٩
اوكرانيا	٣٠٤	٢	٠و٧	٤و٩
روسيا البيضاء	٢٧٣	٢١	٧و٧	٦و٧
اذربيجان	٣١٠	٥	١و٦	١و٣
جورجيا	٢٣٧	٣	١و٣	١و٢
أرمينيا	٢٥٦	—	—	٠و٠٥
تركستان	٢٢٦	٣	١و٣	٠و٢
اوزبكستان	٣٩٥	١٠	٢و٥	٠و٨
طاجكستان	٢٨٢	١١	٣و٩	٠و٣
قازاخستان	٣٠٠	٣	١و٠	٠و٣
القرغيز	٢٨٤	٤	١و٤	٠و١
المجموع	٣،٥٩٤	٩٢	٢و٥	١و٨

46 - Schwarz, Solomon M., The Jews in the Soviet Union, Syracuse University press, 1951, pp (260 -261) and 3o2.

وتذكر مصادر أخرى أن تدنياً شديداً في نسبة عضوية اليهود في مجلسي السوفيات الأعلى قد وقع . فقد « كان اليهود ١و٤٪ من المندوبين سنة ١٩٣٤ و ٨و٠٪ سنة ١٩٤٦ ، وأقل من ٤و٠٪ سنة ١٩٥٠ » .

لقد كانت هذه النسبة عالية سنة (١٩٢٥ - ١٩٢٦) إذ بلغت ٦و١٠٪ من أعضاء اللجنة المركزية ، ولكن هذه النسبة تضاءلت حتى أصبحت ٨و٠ ٪ سنة ١٩٤٦ .

وكان عدد الموظفين اليهود قد جرى تخفيضه تخفيضاً شديداً في وزارة الخارجية والسلك الدبلوماسي منذ سنة ١٩٣١؛ إذ أن معظم السفراء كان حتى هذا التاريخ من اليهود . وقد أمر ستالين وزير الخارجية ليتفينوف باجراء تخفيض شديد في عدد اليهود لأسباب تقتضيها المصلحة . ثم أبعد ليتفينوف عن وزارة الخارجية سنة ١٩٣٩، قبل عقد اتفاقية مولوتوف-روبنتروب*.

ولقد أعيد ليتفينوف نائباً لوزير الخارجية سنة ١٩٤٢ ، ليقصى نهائياً سنة ١٩٤٦ . وكان أن أبعد خلال السنتين السابقتين لابعاده عدد كبير من مسؤولي وزارة الخارجية اليهود حتى

---

* Deutcher ,Issac : The non-Jewish Jew P. 76

انقصت نسبتهم من ٨ ٪ الى ٣ ٪ .

***

وقفت الحركة الصهيونية خلال الحرب مع الحلفاء ، وقد جندت الكتائب التي حاربت معهم . ولفت انتباه الصهيونيين بروز الولايات المتحدة قوة كبرى على مسرح السياسة العالمية ، فبادروا لعمل كل ما يجعلهم يكسبونها لجانبهم . ولما كانت الحرب قد كشفت عن قوة الاتحاد السوفياتي ، وجعلت منه القوة الكبرى المنافسة ، فقد حاول الصهيونيون كسبه . وتطوعت الولايات المتحدة لتقنع ستالين بعدم معارضة الاهداف الصهيونية . ويبدو أن ستالين استجاب . ويخبرنا بن غوريون أن الدكتور ستيفن رايز ، أخبره عند زيارته للولايات المتحدة في ١٩٤٥/٦/٢٣ ، « ان الرئيس روزفلت أكد له ، بعد عودته من مؤتمر يالطا ، ان ستالين لم يكن ضد البرنامج الصهيوني ، وفي الحقيقة : انه كان مؤيداً له . . » [٤٧]. ولهذا فإن تأييد المندوب السوفياتي لمشروع التقسيم في ١٩٤٧/١١/٢٩ ، لم يكن مفاجأة .

ويستطيع المؤرخ أن يلاحظ – عند دراسة السياسة

---

47 - Ben Gurion, David (Conceived and edited) The Jews in Their Land , Aldus Books, London , Translated From Hebrew by Mardecha , Nurock, Misha Lonwirch, 1966, Part 5, P. 318.

السوفياتية إزاء المسألة الصهيونية خلال السنوات (١٩١٨-١٩٤٧) ما يلي :

أولاً : اتجاهاً عاماً ضد الصهيونية ، على اعتبار أنها حركة رجعية وأداة للاستعمار البريطاني . ولكن هذا الاتجاه لم يكن في نفس المستوى من القوة دائماً ، وكان يتعرض احياناً لتجاوزات جزئية . فلقد اشتدت الحملة السياسية والعقائدية على الصهيونية في السنوات ١٩١٨ ، ١٩١٩ ، اشتداداً لا يتناسب مع أهميتها ، إذا قيست بالمشاكل الأخرى المطروحة على الاتحاد السوفياتي آنذاك . ثم عادت فخمدت لتبدأ من جديد سنة ١٩٢٩ ، وبعد الانتفاضة العربية التي قامت في صيف ذلك العام ، واستهدفت اليهود بالذات . إلا ان الهجمات عادت ففترت منذ سنة ١٩٣٨ ، وتوقفت خلال الحرب . ولكن توقفها خلال الحرب لم يعن أن الموقف السوفياتي من الصهيونية قد تبدل . ذلك الوثيقة الوحيدة المتوفرة في هذا الموضوع ، والمنشورة سنة ١٩٤٦ تدل على أن الموقف السوفياتي لم يتغير ، وان الحركة الصهيونية ظلت موضع اتهام وتجريم [٤٨] .

ثانياً : تناقض المواقف من الحركة العربية في فلسطين ، فقد كان نضال عرب فلسطين يقيّم حيناً على أنه نضال وطني تقدمي ،

---

٤٨ — لاكور ، ولتر ، الاتحاد السوفياتي والشرق الاوسط ص ١٧٣ .

بينما يعتبر في أحيان أخرى عملاً رجعياً . ومن سنة ١٩٢٠ عندما اعتبر الزعيم اليهودي ديمانشتين ان الحركة العربية «بنضال ثوري وطني » [٤٩] الى ١٩٤٧/١١/٢٩ عندما أيـــد الاتحاد السوفياتي مشروع التقسيم تغيرت التقييمات السوفياتية عدة مرات . فعندما انفجرت انتفاضة ١٩٢٩ كان موقف الكومنترن في البدء الدعوة للتآخي ونبذ التقتيل « وعممت الصحافة السوفياتية بياناً طويلاً للشيوعيين الفلسطينيين ، يدعون فيه الجماهير العربية واليهودية إلى المسالمة فيما بينها ، والوقوف معاً في وجه الاستعمار والصهيونية والخونة من الوطنيين العرب » [٥٠] . إلا ان الصحافة الشيوعية خارج الاتحاد السوفياتي اعتبرت المقاومة العربيـــة من تدبير الاستعمار البريطاني ، واظهرت تعاطفها مع اليهود . واضطر هنا الكومنترن أن يتدخل ، فأصدر قراراً شجب فيه التأثـــير الصهيوني على بعض الشيوعيين . وقد أعيد تقييم انتفاضـة سنة ١٩٢٩ ، واعتبرت ذات طبيعـة تقدمية . وحـــاول بعض المستشرقين السوفيات أن يفندوا هذا الرأي ، ولكنهم عجزوا لأن الحزب والدولة تبنيا النظرة السالفـــة الذكر . ونالت ثورة ١٩٣٦ تأييداً حاراً في البدء ؛ واعتبرت كفاحاً من أجل التحرر القومي . وميّز المعلقون السوفيات بين ما يحدث لليهـــود في

---

٤٩ ــ لاكور ، ولتر ، المصدر السابق ، ص ٥٢ .

٥٠ ــ ، المصدر السابق ، ص (١٢٥ - ١٢٦) .

فلسطين ، وبين ما كان يصيبهم خلال العهد القيصري في روسية.
وكان اتجاه السياسة السوفياتية يؤيد « حركة التمـــرد العربي
الباسلة » ، ويدعو لوقف الهجرة اليهودية من المانية ، والمحافظة
على عروبة فلسطين . ولكن تعاون القيادة السياسية في فلسطين
مع دول المحور أدى إلى بداية تحول في اتجاه السياسة السوفياتية ، على
الرغم من التبريرات التي كانت تطلق احياناً . ومع ان مشروع
التقسيم هوجم ، إلا ان الاتجاه العام للسياسة السوفياتية تبدل من
تأييد الثورة العربية الى الدعوة لقيام تعاون بين القوى التقدمية
العربية واليهودية لمقاومة العناصر الفاشية بين العرب واليهود .
وتبدل الموقف السوفياتي مرة أخرى ، عندما اعتبر النضـــال
العربي تقدمياً سنة ١٩٤٦ .

٥ ـــ موقف الاحزاب الشيوعية العربية

لا بد من ثلاث ملاحظات قبل البدء في مناقشة موقـــف الاحزاب الشيوعية العربية من المسألة اليهودية :

الأولى : أن الاحزاب الشيوعية العربية نشأت في اوائـــل العقد الثالث من هذا القرن ، وأنها بدأت نموها مع بداية العهد الستاليني . لهذا ، ولأن قياداتها كانت هزيلة وعاجزة ، فقـــد ارتبطت بشعارات السياسة الخارجية السوفياتية اكثر مما ارتبطت بقضاياها . بعد هذا ، ليس غريباً أن نجـــد مواقف الاحزاب الشيوعية العربية لا تختلف عن الموقف السوفياتي ، ونراها تعيش تقلباته .

الثانية : أن المهاجرين اليهود ، ورسل الكومنترن ساهموا مساهمة فعالة في إنشاء الحركات الشيوعية ، في مصر ولبنـــان وسورية وفلسطين .

الثالثة : أن الحزب الشيوعي الفلسطيني بدأ حزباً يهودياً ، ثم طرح مشروع تعريبه سنة ١٩٢٩ ، بقرار من الكومنترن ، وعلى الرغم من ذلك فقد ظل العرب أقلية فيه . ولكن الخلافات بدأت سنة ١٩٣٩ ، لتنتهي سنة ١٩٤٣ بانفصال العرب عن الحزب ، وإنشاء عصبة التحرر الوطني . ولكن الوضع تغير بعد سنة ١٩٤٨ ، إذ اندمجت بقايا عصبة التحرر الوطني في فلسطين المحتلة ، مع الحزب الشيوعي الاسرائيلي * .

وسأقدم هنا صورة عن سياسة الحزب الشيوعي الفلسطيني ، في هذه المرحلة (١٩١٩ ــ ١٩٤٨) ، ذلك أنها لا تمثل سياسة الاحزاب الشيوعية فحسب ، بل انها تعطي اصدق صورة عن هذه السياسة في المرحلة المذكورة .

نشأ الحزب الشيوعي الفلسطيني، بين المهاجرين اليهود ، ومن عناصر شيوعية مهاجرة ، أو من عناصر اعتنقبت الشيوعية بعد وصولها . وكان بين الوافدين سنة (١٩١٩ ــ ١٩٢٠) عدد من

---

* حدث انشقاق سنة ١٩٦٥ في الحزب الشيوعي الاسرائيلي ، فانفصلت عنه العناصر اليهودية الصهيونية ، وظل فيه اليهود المعارضون للخط التوسعي الصهيوني ؛ مع كثرة من العرب .

الاشتراكيين ، وقليل من الشيوعيين . وكان من بين الوافدين رسل أرسلهم الكومنترن . ولكن الشيوعيين الذين كانوا أعداء ألداء للصهيونية ، كانوا لا يلبثون أن يبرحوا فلسطين عائدين الى الاتحاد السوفياتي .

حدث تبدل في سياسة الحزب الشيوعي الفلسطيني . فلقد أصدر مؤتمر الكومنترن السادس قرارات تدين الاحزاب البرجوازية الخائنة (الكومانتانج في الصين، والوفد في مصر) وتدعو لتأجيج النضال الطبقي ، بدل التعاون مع الحركات الوطنية. وكان من نتيجة دراسة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني لهذه القرارات أن أجرت تبديلاً في سياستها ، فاسقطت شعار «برلمان ديمقراطي في فلسطين» ، ورفعت شعار «دولة العمال والفلاحين » . وهذا يعني عدم الاستعداد لقبول أي تعاون مع الحركة الوطنية التي تقودها البرجوازية .

وكانت خطة الحزب في سنوات (١٩٢٨ ـ ١٩٢٩) تركز على ضرورة فضح « المؤامرات الانجليزية » لتأريث نار العداوة بين العرب واليهود ، وإشعال الفتنة بين الاخوة . وقبل ان تنفجر احداث آب سنة ١٩٢٩ بأسبوع ، أصدر الحزب نشرة يدعو فيها : « الجماهير الكادحة العربية واليهودية لتتجاوز الحقد العنصري والاثارة ، ولتعمل على تجنب حرب

أهلية »[٥١]. وعندما انفجرت احداث آب ، حافظ الحزب على هذا الخط السلمي ، الذي يدعو الى الوئام ، ونبذ الاحقاد ، مدة شهر ، ولكنه عاد واشترك في الدفاع عن المستعمرات والاحياء اليهودية ، وحمل حكومة الانتداب مسؤولية المذابح .

يبدو أن موقف الحزب الشيوعي الفلسطيني لم يرق للكومنترن ، فأصدر قراراً ادان فيه موقف قيادة الحزب الشيوعي الفلسطيني ، التي تكشف مدى « تأثير الافكار الصهيونية والاستعمارية في عقول بعض الشيوعيين » [٥٢] .

وقام شامي ، موفد الكومنترن في سنوات سابقة إلى فلسطين وسورية ، وأحد المختصين بشؤون المنطقة ، بتحليل احداث ١٩٢٩ ، مقرراً أن الحركة العربية حركة تقدمية ، وأنها تعبر عن الصراع الطبقي في الريف . ولم يكن توجيهها ضد اليهود ليغير من طبيعتها التقدمية ، وهي لا بد متوجهة فيما بعد ضد الاحتلال والاقطاع .

---

51 - Laquer, Walter : Communism and Nationalism in The Middle East, Routledge and Kegan paul - London, p. 83 .

٥٢ ـ لاكور ، ولتر : الاتحاد السوفياتي والشرق الاوسط ، ص١٢٦ .

أدى التغير الذي طرأ في الكومنترن إلى تغير اتجاه الحزب الشيوعي الفلسطيني ، فبدأ ينظم نفسه على أساس جديد . هذا الأساس هو ما سمي حينذاك « التعريب » . وكانت حركة التعريب تقوم على أساس طرد بعض العناصر من جهة ، واعادة قبول العناصر الأخرى ، بعد الاجابة على عدد من الاسئلة ،ومن هذه الاسئلة : « هل تقبل وجهة النظر القائلة بأن انتفاضة اب كانت تعبيراً عن « ثورية » Radicalization الجماهير العربية » [٥٣].ولقد اعتبر الواجب الأول للحزب كسب الطبقة العاملة العربية . واعتبر فشله في ان يكون حزباً عربياً شعبياً نقطة ضعف اساسية .

وعقد مؤتمر موسع في كانون أول (ديسمبر) ١٩٢٩ ، أصدر قرارات متفائلة جاء فيها أن : « الثورة انتصرت ولم تضرب . وأننا على ابواب انتفاضات اوسع ». وكان : « الواجب الرئيسي للحزب الشيوعي هو تشجيع الثورة العربية وتوسيعها وقيادتها » [٥٤] .

وسار الحزب خلال الثلاثينات في خطه الجديد القائم على التعريب من جهة ،والمعادي للصهيونية من جهة أخرى. واتجه النشاط

---

53 - Laquer, Walter : Communism etc. p. 84 .

54 - Ibid. p. 84 .

في ميدان التعريب الى النوادي والاحزاب الوطنية والورشات الجديدة ، خاصة ورشات سكك الحديد في حيفا. وكان أن أرسلت قيادة الحزب أكثر من ثلاثين عربياً إلى موسكو للدراسة في السنوات الست التالية على سنة ١٩٢٩ . وحين تم اعتقال بعض قادة الحزب سنة ١٩٣٠ ، وكان من بينهم نجاتي صدقي ، أصدر الحزب منشوراً احتج فيه على الاعتقال ، وأشار بافتخار إلى أن الحزب أصبح عربياً . وحين نشأ حزب الاستقلال سنة ١٩٣٣ ، عمل الحزب الشيوعي الفلسطيني على التعاون معه ، وخاصة الجناح التقدمي منه ، بقيادة حمدي الحسيني . وكان شعاره في هذا المجال : « سيروا منفصلين، واضربوا معاً » . وقد رفع في هذه المرحلة شعار الوحدة العربية [٥٥]، وحاول أن يكسب ثقة المواطنين العرب بأية وسيلة ، فدعت صحف الحزب، مثلاً ، لاطلاق سراح معتقلي سنة ١٩٢٩ و ١٩٣٣ ؛ وحثت على جمع التبرعات للضحايا والمصابين، وحاول بعض الشيوعيين اليهود أن ينتظموا في صفوف الحركة العربية ، الا أنهم فشلوا .

وكان الهجوم على الاحزاب الصهيونية ، في هذا الوقت ، يزداد حدة . وعلى الرغم من أن الحزب لم يشترك في احداث سنة

---

55 - Spector , Ivar — المصدر السابق

١٩٣٣ إلا أنه اعتبرها : « رد فعل طبيعي ويائس للجماهير المستغلة ضد مضطهديها الصهيونيين الذين يرغبون في طردها من أراضيها »[٥٦] وكتبت جريدة الحزب ها أور (الضوء) في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣٣ : « إن الجماهير اليهودية لم تتحقق بعد ، أي مصير رهيب مخبأ لها في فلسطين »[٥٧] .

أثار هذا الاتجاه كثيراً من التساؤلات داخل الحزب ، وكان من أهم التساؤلات المطروحة : (١) هل بامكاننا أن نقنع العامل اليهودي اليائس القادم إلى فلسطين بوجهة نظرنا ، مع أنه إما أن يكون صهيونياً أو يغادر البلاد ؟ وكان رد القيادة ايجابياً ، ذلك أن المطلوب هو فضح التضليلات الصهيونية (٢) لماذا يركز الشيوعيون على البروليتاريا المدنية في كل مكان ، إلا في فلسطين حيث يركزون على الفلاحين ، « حيث يعطى لهم دور اكثر تقدمية من البروليتاريا ، لأن البروليتاريا يهودية »[٥٨] .

ولقد قاد مثل هذه التساؤلات الى الانشقاق العربي ــ اليهودي الذي بدأ جدياً سنة ١٩٣٩ ، وتبلور سنة ١٩٤٣.

---

56 - Laquer, Walter : Ibid p. 89.
57 - » » » » 90.
58 - » » » » 86.

ان وضع الحزب الحرج ، والناتـــج عن تأييد العرب في اوساط اليهود،ومقاومة الهجرة الصهيونية في اوساط صهيونية، هو الذي أثار مثل الاسئلة السالفة الذكر ، وبذر بذور الشقاق في الحزب .

وحين صدرت قرارات مؤتمر الكومنترن السابع، أخذت الاحزاب الشيوعية في انحاء العالم ، تدعو الى سياسة الجبهات الشعبية ، ولكن الحزب الشيوعي الفلسطيني رفـض أن يطبق هذه السياسة في فلسطين؛ ورفض ان يتعاون مع العمال الصهيونيين لـ : « أن العامـل اليهودي في فلسطين ؛ ليس من طراز العمال الذين يعتقدون خطأ بالاشتراكية الديمقراطية » . «ان الشوفينية تعمي العامل الصهيوني، والحوافز القومية الأشد سواداً ، جعلته يؤمن بالمعجزات. وهو يعتقد فعلاً بأن بلاده ستكون قادرة على استيعاب عشرات الآلاف من اليهود كل سنة ، خلال السنوات الخمس عشرة الى العشرين القادمة . وهو يؤمن باستيعاب الملايين، وانشاء الدولة اليهودية . ان العامل اليهودي يرتكب خطأ اكثر خطورة من العامل الديمقراطي الاجتماعي في أوروبا » [٥٩] .

وعلى الرغم من وصول هتلر للحكم سنة ١٩٣٣ ، وابتداء المرحلة السوداء من تاريخ اليهود الحديث ، فقد ظل الحزب ضد

---

59 - laquer Walter : Ibid p. 92

الهجرة ، معتبراً أن كل مهاجر جديد ، جندي فاشي جديد . كان الحزب يرى في حركـــة المهاجرة حركة تستهدف ادخال « جنود فاشيين صهيونيين ليحاربوا الحركة الوطنية العربيـــة والاتحاد السوفياتي »[٦٠] . وكان الحزب يبذل جهوداً كبيرة لاقناع المهاجرين الجدد بالعودة من حيث جاءوا. وفي سنة ١٩٣٦ مثلاً، وزع منشور في ميناء حيفا ، باللغة الالمانية ، على مهاجرين المان وافدين، جاء فيه : « يوجد عدد كاف من العاطلين في هذه البلاد » . وكان من الشعارات التي رفعت : « انهـــاء الهجرة والحركة الصهيونية » .

ولعـــل قرار المؤتمر السابـع للحزب الشيوعي الفلسطيني ، المنعقد سنة ١٩٣١ ، « علامة فارقة » في خط الحزب ، وذروة ما وصله من الصفاء في رؤية قضية فلسطين . فالصهيونية في هذا القرار : « أداة للامبريالية البريطانية تستخدمها للقضاء على حركة التحرر القومية للجماهير العربية ، وفي الوقت نفسه ، فهي ذاتها تصنع أداة من السكان اليهود في فلسطين ، بما في ذلك المراتب البروليتارية وشبه ـ البروليتارية » . و « الصهيونية ، بوصفهـا الفصيلة النضالية للامبريالية ، تقوم بكفاح إبادة استعماري ضد الجماهير المحلية الكادحة » .

---

60 - Laquer, Walter : Ibid p. 93

ولم يفت مؤتمر الحزب سنة ١٩٣١ أن يرى في « تجمعـات » اليهود ، التي تعمل«البرجوازية اليهودية ، عبر ما يسمى الصندوق القومي » والهستادروت على انشائها شبكة كاملة من «المخافر» الزراعية ، المقامـــة في أماكن استراتيجية تسهل الاستيلاء التدريجي على مجموع البلاد » [٦١] .

إن هذه الروح ، هي التي جعلت تاجار ، أحد ممثلي الحزب يقول في مؤتمر الكومنترن السابع : « واجبنا أن نكشف للعمال اليهود أن مصالحهم القومية والاقتصادية مرتبطة مباشرةبانتصار حركة التحرر العربية » . وجعلت آخر يقول : « إن الاقليـــة اليهودية في فلسطين اقلية استعمارية بطبيعتها » [٦٢] .

أحس الحزب في آواخر سنة ١٩٣٥ ، ان ثورة على الابواب ، فأعلن ذلك ، داعياً جماهير اليهود لتأييد الحركة العربية القومية ، ومشهراً « بالصهيونيين الفاشست لأنهم شنوا الحرب على العرب ، وقتلوا الفلاحين » [٦٣] . وكان الحزب يطالب بحـل الهاجانا ، ومنظمات الدفاع اليهودية الأخرى ومنعهـــا . وجرى نقاش في الحزب ، على مستوى القيادة ، لتحديد دوره عند اندلاع الثورة .

---

٦١ ـ المصدر السابق Spector, Ivar

62 - Luquer, Walter : Ibid p. 97 .

63 - « « « « 97.

وقد اتخـذ قرار ينص على « أن الشيوعيين العرب ، يجب عليهم أن يشاركوا مشاركة فعالة في تدمير الصهيونية والامبريالية ، بينما يجب على الاعضـــاء اليهود أن يقوموا بدورهم باضعاف المجتمع اليهودي من الداخل » (٦٤) . ويذكر أن قيادة الحزب اتصلت على اثر هذا القرار بالحـاج امين الحسيني من اجل تنسيق العمل معه . وبعد أن اندلعت الثورة باسبوعين اصـدر الحزب بياناً أيد فيه المطالب العربية ، وحث اليهود على« الانخراط فيالحركة الوطنية العربية ».ولكن اغلب القواعد رفضت تلبية طلب القيادة ، واختارت الانسحاب أو تجميد نفسها . وبينما استمرت القيـادة تصدر بياناتها بين الحين والآخر ، مؤيدة الاستمرار في الثورة ، كان الحزب يزداد تفككاً ، ويزداد ضعفاً ، فقـــد قتل بعض الاعضاء العرب ، واعتقل آخرون ، بينما كانت القواعد اليهودية تصدر بيانات خاصة بها .

وحين فشلت الثورة ، عزا الحزب فشلها إلى « عدم وجود قيادة...أنانية القادة وانتهازيتهم ، لا مركزية قيادة العصابات ، وضعف الحزب الشيوعي » .

وظلت القيادة تتابع مسيرتها ، في هـــدا الخط ، حتى سنة ١٩٣٩ ، بعد توقف الثورة،عندما اعلنت في رسالة إلى الاعضاء

---

64 - Laqüer, Walter : Ibid p. 97 .

(نوفمبر ١٩٣٩)ان استمرار اضطرابات ١٩٣٧ ،وهذا ما أراده قادة الحركة الوطنية العربية ، خطأ ، « لأنهم ظنوا خطأ أن الوضع العالمي مناسب ».واعتبرت الرسالة أن عدم اعلان الحزب لمعارضته لتجديد الاضطرابات كان خطيئة . وحاولت الرسالة أن تعزو تأييد اشتراك الحزب في الثورة الى طبيعة الثورة الشعبية ، وللاحقة التأثيرات الفاشية . ولم تتورع القيادة عن القول بأنها اشتركت في الثورة بعد تردد .

انتهت الثورة ، وانتهى الحزب ... فلقد كانت هنالك قيادة بلا قواعد .

بعد أن اعلنت الحرب (العالمية الثانية) ظهر في الحزب اتجاهان أولهما يعبر عن الجناح العربي ، وكان هذا الاتجاه يرى أن هتلر ، بعد أن اصبح حليف الاتحاد السوفياتي ، ليس الخطر الداهم ، وان «العدو الذي يجب ان يحارب هو العدو في الداخل». وحين ارسل المتطوعون الصهيونيون الى الجبهة الغربية لمحاربة الألمان ، أصدر الحزب نداءاً خاصاً جاء فيه ان هؤلاء المتطوعين لم يذهبوا لمحاربة هتلر ، بل لمحاربة الاتحاد السوفياتي . أما الاتجاه الثاني ، فهو الاتجاه المعبّر عن الجناح اليهودي ، والذي كان يعتبر الحرب شراً ، ولا ينظر الى اي من المتخاصمين برضى .

واثنى الحزب على موقف العرب من الحرب ، واعتبره تقدمياً ،

« فلقد فهم العرب جيداً طبيعة هذه الحرب الاستعمارية، وأدركوا أن واجبهم مقاومة هذه الحرب ، والمسؤولين عنها » . وأصدر الحزب منشوراً ، بعد ثورة ١٩٤١ في العراق، يطلب من بريطانيا والمانيا فيه عدم التدخل في شؤونه. وقد ظل شعار هذه المرحلة القصيرة : « مقاتلة العدو في الداخل » .

أخذ هذا الموقف في التغير بعد الغزو الالماني للاتحاد السوفياتي ، وبعد أن كان الانتساب لجيش تشرشل موازياً لمساعدة اعداء الاتحاد السوفياتي ، صدرت الأوامر بالانخراط في جيش تشرشل رفيق سلاح الجيش الاحمر .

ولقد كان الحزب مضطراً لنقد خطه السابق ، والاعتراف بخطأه .

تكرس سنة ١٩٤٣ انقسام الحزب الى جناحين ، قاد أولهما موسى الدجاني، وكان يمثل العناصر العربية مع بعض اليهود ، وقادت ثانيهما العناصر اليهودية . وقد صمم موسى على ابعاد اليهود عن قيادة الحزب ، فاعلن القادة اليهود طرده هو ورفاقه . وقد نشر أميل حبيبي ، احد قادة الحزب ، ومن مؤيدي موسى ، نداء اتهم فيه الشيوعيين اليهود بالانحراف القومي . وقد عجل هذا النداء في تفجير الانشقاق . وكان هذا الاتجاه يرى : « أن الحزب الشيوعي الفلسطيني حزب وطني عربي ، مع أنه يضم أفراداً من اليهود ، يقبلون برنامجه الوطني » . وكان من رأي

هذه الجماعة أن حل الكومنترن عمل يستحق أن يرحب به،لأنه يسهل انضمام الفئـات القومية إلى الحزب الشيوعي الفلسطيني . ولكن هـــذا الاتجاه أثار حفيظة الشيوعيين اليهود ، فقرروا القضاء عليه .

تأسست سنة (١٩٤٣ – ١٩٤٤) عصبة التحرر الوطني ، ونشطت في اوساط المثقفين الشباب في المدن،وخاصة يافا وحيفا والقدس ؛ وركزت نشاطهـا في اوساط العمال ، فأنشأت مؤتمر العمال العرب . وكانت من الناحية الحزبية تطالب بانتهاج سياسة جديدة ، وفي السياسة الخارجية ترفـــع شعار : « دعم المجهود الحربي للحلفاء » .

كانت عصبة التحرر الوطني لا تختلف جذرياً في موقفهـــا العام عن الحركة الوطنية العامة ، ولكنها كانت على استعداد لقبول بقاء كل اليهود الموجودين في فلسطين ، كما انها كانت على استعداد لقبول تدخل الأمم المتحدة . وقد ظلت على علاقـــة بقيادة الحركة الوطنية . وعندما عاد الحاج أمين مفتي فلسطين، وقائد الحركة الوطنية من الأسر ، سنة ١٩٤٦ ، كتبت جريدة العصبة : « ان العرب الذين ظلو موالين لزعيمهم يحتفلون بهـــذا العيد في كل البلاد » . وحين طلب الحاج امين من العصبة ، ألا تتقدم للشهادة أمام اللجنة المرسلةمن الأمم المتحدة سنة ١٩٤٧، قبلت العصبة ذلك .

ولقد زار وفد من العصبة الحاج أمين، قبل انفجار الحوادث سنة ١٩٤٧ معبراً له عن تأييد العصبة وولائها . وحين أصدر غروميكو تصريحه الخطير في العام ذاته، أكدت العصبة وقوفها ضد المزاعم الصهيونية، وتأييدها للموقف العربي. ولكن العصبة لم تعتم ان انقسمت قسمين اولها بقيادة فؤاد نصار وأميل حبيبي، يؤيد التقسيم ، وثانيهما بقيادة موسى الدجاني وأميل توما يعارضة .

أما الجناح اليهودي فقد خفف من هجماته على الصهيونية ، واخذ يصدر البيانات الغامضة، استعداداً للطوارىء . رفع الحزب شعار : « جمهورية ديمقراطية مستقلة » على اعتبار أن هذا يؤمن الحقوق الكاملة للعرب واليهود. ولكن تصريح غروميكو أذهل الحزب، فلما أفاق من الصدمة هاجم مشروع الدولتين المنفصلتين، وأيد مشروع دولة واحدة من قوميتين .

وبينما انقسمت عصبة التحرر الوطني الى فئتين احداهما حاربت مع العرب ضد اليهود ، بقيادة أميل توما ، وثانيها حاربت الحروب ، دعا الحزب اليهودي اعضاءه للقيام بدور في ما أسماه حرب الدفاع (١٩٤٨ — ١٩٤٩) ، ووافق على احتلال النقب . ولم يتورع سنة ١٩٤٩ عن المطالبة باحتلال القدس ،

بحجة أن الامبريالية الامريكية تسعى لتدويلها [٦٥] .

---

٦٥ ـ اعتمدت في هذا الفصل على لاكور : «الاتحاد السوفياتي والشرق الاوسط» ؛ طبعة المكتب التجـاري ؛ و « الشيوعية والقومية في الشرق الاوسط» ؛ الطبعة الانجليزية المذكورة سابقاً ؛ وعلى الياس مرقص : «تاريخ الاحزاب الشيوعية في الوطن العربي» ؛ ط . ا . دار الطليعة بيروت ؛ وعلى الحكم دروزه» ؛«الشيوعية المحلية ومعركة العرب القومية» ط ١٩٦٣،٣٠ مكتبةمنيمنة، بيروت.

٦ ـ تقييم

كانت الماركسية ،في هذه المرحلة (١٨٤٤ – ١٩٤٧)، تفند نظريافكرة « أمة يهودية »،وتحارب عملياً النشاطات الصهيونية. ولم تكن مسألة نفي وجود أمة يهودية مسألة معقدة ، ومع هذا فإن ستالين ولينين وغيرهما سوّدوا الصفحات الطوال في هذا الموضوع . اليهود لايتوفر فيهم أي شرط من الشروط التي تجعل من جماعة بشرية أمة . هذا ما تؤكده الأدبيات الماركسية في هذه المرحلة تأكيداً لا لبس فيه ، ولا إبهام ؛ مع أن ستـــالين أخطأ حين اعتبر ان أصل اليهود المشترك يجمعهم ،أو ان لهم « بعض بقايا الطابـع الوطني » ، عن أي أصل مشترك يتحدث ستالين ، وأي « بقاياطابـع وطني» يذكر؟ هذا ما سنجيب عليه فيما بعد.

جر رفض الاعتراف بوجود أمة يهودية، إلى رفض قيام دولة صهيونية في فلسطين ، واعتبار هذه الدعوة رجعية استعـــمارية فاشية ، كما جر الى رفض التقسيم رفضاً قاطعاً .

ولقد ظلت الاحزاب الشيوعية ، كما ظل الاتحاد السوفياتي ، ثابتة على موقفها هذا ، وان كانت – كما كان الاتحاد السوفياتي – « تلعب » بالشعارات الاستراتيجية ، فترفع منها ما تشاء ، وتسقط ما تشاء ، حسب تقييمها للأحداث ، وفهمها لتناقضاتها وتداخلاتها . لقد كانت المعارك السياسية والتحالفات السياسية تملي مواقف معينة ، ولكن هذا كله لم يؤد إلى تغيير جذري في الموقف ، لأن كل الاحزاب الشيوعية الغربية ، ولأن الاتحاد السوفياتي أيضاً ، ظلت منذ العشرينات حتى سنة ١٩٤٧ ضد وجود دولة صهيونية . ومع هذا فقد كانت هنالك نقطة ضعف خطرة في هذا الموقف . نقطة الضعف هذه هي محاولة التفريق بين الحركة الصهيونية والجماهير اليهودية . المحاولة بريئة ، وتنبع من تحليل قاصر لوضع اليهود في فلسطين . وما دامت كل امة أو جماعة بشرية تتكون من طبقات ، وما دامت الصهيونية تمثل البرجوازية اليهودية في كل انحاء العالم ، فلا بد ان تكون متعارضة – فكراً ومصالح – مع الجماهير اليهودية . ولكن ما دام اليهود ليسوا شعباً ، وما دامت تجمعاتهم في فلسطين ثمرة من ثمرات العمل الصهيوني ، وقد كانت من أجل اجلاء شعب آخر عن ارضه ، والحلول مكانه ... فيجب ان تحاكم هذه التجمعات على ضوء الواقع ... واقعها هي بالذات ، لا على ضوء النظريات . التجمعات اليهودية في فلسطين كانت تجمعات صهيونية ، ... « مخافر زراعية » وكان القادمون يأتون ، وفي اعماقهم حلم كبير

يريدون تحقيقه : « إقامة دولة اسرائيل » على اختلاف طبقاتهم. ولو كانوا ضـد برجوازيتهم الصهيونية لما جاءوا ... لما تركوا أعمالهم وبيوتهم وجاءوا . وحتى هـؤلاء الذين « هربوا » من كابوس النازية ، كان بإمكانهم أن يعودوا بعد نهـاية الحرب ، وزوال شبح « اللاسامية »، لا سيما أن أوروبا بدأت بعدالحرب مشروع تعمير كبير أوجد حاجة ملحة للفنيين والأيدي العاملة. الحديث هنا عن فروق أساسية بين موقف طبقة وطبقة داخل « التجمعات الصهيونية » ... « المحافر الزراعيـة والصناعية » ليس موضوعياً ، ولا يدل على فهم طبيعة الغزو الصهيوني . ومع ان الأحداث كانت تكشف كل يوم أن كل التجمعات اليهودية في فلسطين صهيونية ، فقد كان شعار الاخاء العربي – اليهـودي يرفع دائماً . وكان الشيوعيون أول من عانى من صهيونيـة التجمعات اليهودية ... إذ كان عددهم يتضاءل ونفوذهم يتقلص بمقدار ما يحاربون الصهيونية .. ففي انتخـابات جرت سنة ١٩٣٠ خسر الحزب نصف الأصوات التي حصل عليها سنة ١٩٢٥، مع أن عدد المهاجرين الصهيونيين زاد . وكان من أسباب ذلك موقف الحزب المعادي من الهجرة والمنظمات الصهيونية[٦٥]. وسوف نتابع كشف هذه الحقيقة في المرحلة القادمة .

إن هذه الرؤية المثالية لواقع التجمعات الصهيونية ، هي التي

---

66 - Laquer, Walter : Ibid.p. 88 .

جعلت قادة الحزب يجرمون هجمات العـــرب على المستعمرات الصهيونية ، كما حدث سنة ١٩٢٩ ، وقبل صدور قـــرار الكومنترن ، وهي التي جعلتهم يظنون أن هناك إمكانية عمل مشترك بين الجماهير العربية واليهودية ضد الاستعمار البريطاني . وترتب على هذا اعتبار أي هجوم على مستعمرة يهودية صراعاً عرقياً ودينياً .

وهكذا ، فبينما كان الشيوعيون يرفضون فكرة قيام دولة يهودية ، ويحاربون الصهيونية ، ويطالبون بشعار وقف الهجرة ، كانوا يرفعون شعار الإخاء العربي — اليهودي. ولكن العربي كان يدرك أن ما بينه وبين اليهودي الوافد ، ليس اخاء بل عداء ، وأن مهاجمته لمستعمرة لاتقل أهمية وضرورة عن مهاجمة معسكر بريطاني . وكانت هجماته على المستعمرات تجعل عمل الصهيونية صعباً في الداخل والخارج. ألا يكفي دليلاً على ذلك أن سنوات الثورة (١٩٣٥ — ١٩٣٩) سجلت تقلصاً في الهجرة الصهيونية وانكماشاً في النشاط الاقتصادي الصهيوني في فلسطين ، وأن هذه الثورة أدت إلى إلغاء الكتاب الأبيض لسنة (١٩٢٢) . ثم ألا يكفي أن نذكر هنا أن هجمات العرب العفوية سنة ١٩٢٩ ، التي أدانها الحزب الشيوعي الفلسطيني ، قد أدت الى إصدار قرار هام من الكومنترن ، لمصلحة العرب ، وهو القرار الذي تحدثنا عنه سابقاً . .

إن رفض شعار الاخاء العربي — اليهودي لا يعني تجريم كل

يهودي جاء فلسطين ، فلقد قام بعض الشيوعيين من هؤلاء بدور مشرف ، ولكن هؤلاء كانوا قلة ، ولم تكن هنالك إمكانية لتقدمهم ، وانتصار أفكارهم في جو صهيوني . وكان مثل هذا الشعار يشجع استقرار العناصر الصهيونية في فلسطين ، وبالتالي يساعدها على بناء مستعمراتها ، وتحصين نفسها، وتحقيق اهدافها. ولنفترض أن العرب واليهود اتفقوا على محاربة الاستعمار البريطاني، فما الذي سيحدث بعد القضاء على الاحتلال ؟ هل كان يتوقع الشيوعيون حلول السلام بينهم ما دام اليهود قد جاءوا حالمين بإنشاء دولة ، وما دام العرب يرفضون الاعتراف بأي حق لليهود في مشاركتهم وطنهم ؟

إن موقف العرب من اليهود ليس ناتجاً عن عصبية عرقية أو دينية ، وليس ناتجاً عن تحريض بريطاني أو غير بريطاني ؛ انه موقف دفاع عن النفس إزاء « غزوة بربرية » لا تقل همجية عن غزوات البرابرة والتتر والمغول ، وإن كانت اكثر خطورة منها ، لأنها تستهدف إبادة شعب بأسره ، ليحل شعب آخر مكانه .

ولقد كان الحس البدائي لدى الجماهير العربية الكادحة أقدر على فهم طبيعة « الغزوة البربرية » من كل النظريين والسياسيين .

اليهود يُصبحُونَ أُمة

(١٩٤٨ - ١٩٦٧)

١ ـ الاتحاد السوفياتي وإسرائيل

وقف مندوب الاتحاد السوفياتي في الأمم المتحدة ، عند بحث موضوع فلسطين ، في أواخر سنة ١٩٤٧ ، ليؤيد مشروع التقسيم . أحدث تأييده انعطافاً في الموقف السوفياتي الرسمي ، وفي موقف الأحزاب الشيوعية في كل أنحاء العالم . كان التناقض بين محاربة الصهيونية ، ونفي وجود أمة يهودية ، وبين تأييد قيام دولة صهيونية ، ثم الاعتراف بها منذ إعلانها ... كان هذا تناقضاً مذهلاً .

وانتقل الاتحاد السوفياتي من النقيض إلى النقيض ، فطالب سنة ١٩٤٧ مندوبه في الأمم المتحدة بالاعتراف بدولة إسرائيل عندما كان مجرد الاعتراف بها موضوع خلاف . « وشجع ستالين بعض حكومات أوروبا الشرقية على السماح لليهود الذين عاشوا في بلادهم بالهجرة إلى فلسطين ، وحتى أن تقدم الأسلحة

التي حارب بها الصهيونيون حرب استقلالهم »[1].

ما هي أسباب هذا التطور أو لنقل « الانقلاب » ؟

حاول بعض أن يرده إلى خطأ السياسة العربية التي كانت عازفة عن التفاهم مع الاتحاد السوفياتي حول قضية فلسطين ، وردها آخرون إلى اعتقاد الاتحاد السوفياتي بـأن إسرائيل ستكون واحة الديمقراطية في الشرق الأوسط .

ورد بعضهم ذلـك إلى نفوذ اليهود في الحزب الشيوعي السوفياتي ، ولكن دراسة الأرقام المتوافرة عن عدد اليهود في الحزب والجيش والدولة لا يؤكد هذه الحقيقة تماماً . وقد بينا هذا في مكان سابق .

ولكن الإجابة علىهذا السؤال ظلت تقديرية وموضع تكهن وزاد الأمر غموضاً أن الاتحاد السوفياتي لم يعلن عن أية تفاصيل خاصة بموقفه من قضية فلسطين منذ سنة ١٩٤٨ حتى الآن .واني أعتقد أن ملابسات الموقف السوفياتي تنجلي إذا أدركنا ما يلي :

---

1 - Deutscher , Issac : Stalin , A political Biography , Revised Edition , Penguin Books, (Pelican Books) 1966

أولاً : كان الصهيونيون قد نجحوا في التأثير على ترومان وإقناعه بإدخال قضية تأييد المشروع الصهيوني في مساومات الحرب العالمية الثانية . وقد نقلنا ما رواه بن غوريون عن التأييد الذي ظفر به ترومان من ستالين في مؤتمر يالطا للمشروع الصهيوني .

ثانياً : كانت الحرب الباردة قد بلغت مستوى من الحدة يخشى معه قيام حرب ثالثة ، ولم يكن الاتحاد السوفياتي مهيأ لذلك ، في وقت كانت فيه الولايات المتحدة متفوقة في ميدان الذرة . ويبدو أن ستالين أراد أن يكسب عطف الصهيونية العالمية ذات النفوذ على رأس المال العالمي، وبالتالي على سياسة الدول الرأسمالية ، فأيد قيام إسرائيل .

ثالثاً : كانت المنطقة العربية منطقة زراعية متخلفة ، وكانت إسرائيل في حال قيامها تبشر بنهضة صناعية تؤدي إلى انتشار الشيوعية .

رابعاً : كان كثير من القادة الشيوعيين في أوروبا الشرقية من اليهود ، وكان ستالين يعتمد على هؤلاء في تنفيذ سياسته ، ويبدو أن هؤلاء أثروا كثيراً في موقف الاتحاد السوفياتي من قضية فلسطين .

خامساً : أراد ستالين أن يصلح علاقات الاتحاد السوفياتي مع الولايات المتحدة متبنيـــة المشروع الصهيوني وعاضدته [٢] .

سادساً : تملك الصهيونية العالمية أجهزة دعاية قوية في الغرب كما تملـــك نفوذاً واسعاً في الأوساط الإعلاميـــة والسياسية والحزبية ، تقدمية ورجعية ، وربمـــا كان الاتحاد السوفياتي يريد ، بالموافقة على قيـام إسرائيل ، إسكات هـــذه الأصوات المشوشـــة الضاغطة ؛ التي كانت تتهم النظـــام السوفياتي باللاسامية والطغيان ؛ من بين اتهامات أخرى ، كان النظام السوفياتي يعتبر انه موجود للقضـــاء عليها ، أي أن الدعايـــة الصهيونية كانت تطعن النظام السوفياتي في نقاط حساسة . ومـــا زالت الدعاوة الصهيونية تستخدم هذا السلاح حـــتى اليوم .

ولم يبرح هذا « الانقلاب » السياسي ان أدى إلى « انقلاب » عقائدي . فـاليهود لم يكونوا أمـــة ، ولكنهم الآن اصبحوا أمة .

---

2 - Deütscher , Issac: Ibid. p . 591

وقد بررت مجلة « الأزمنة الحديثة » في الرابع عشر من ايار (مايو) ١٩٤٧ تأييد الاتحاد السوفياتي لمشروع التقسيم بقولها : « وبما أن فلسطين تقطنها أُمتان : عربية ويهودية ، لهما جذور تاريخية في البلاد على السواء ، فلا يمكن الدفاع عن مصالحهما المشروعة إلا عن طريق إنشاء دولة عربية يهودية مستقلة ديمقراطية . هذا ما طالب به غروميكو : إنشاء دولة يتمتع بها العرب واليهود بحقوق متساوية ، وهي الوحيدة التي تستطيع ان تضمن التعاون بين الامتين لمصلحتها ورفاهيتها المشتركة. وانه إذا استحال تحسين العلاقات بين السكان العرب واليهود ، وفي هذه الحالة فقط ، كما قال غروميكو في آخر خطبته ، سنضطر إلى اعتبار الاقتراح الآخر لحل المشكلة الفلسطينية ، وهو التقسيم إلى دولتين مستقلتين : إحداهما عربية والأخرى يهودية »[٣] .

إن مجلة الأزمنة الحديثة هنا تلتمس العذر للتأييد السوفياتي من خلال وضع العرب واليهود في فلسطين على قدم المساواة : اعتبار اليهود ، أمة ، ذات جذور تاريخية في البلاد، ولها مصالح مشروعة . ولكن كيف يكون ذلك ؟ هذا ما لم تجب عنه المجلة ، ولا أية مجلة سوفياتية أخرى .

واندفعت السياسة السوفياتية في هذا الاتجاه ، حتى أن

---

٣ ـ دروزة ؛ الحكم : المرجع السابق ؛ ص (٣٠٧ ـ ٣٠٨) .

الحكومة السوفياتية اعتبرت تدخل الجيوش العربية عدواناً على إسرائيل ، وأخذت الأوساط السوفياتية الحاكمة تتملق الدولة الجديدة ، مدعية أن الاتحاد السوفياتي هو الصديق الصدوق الوحيد لها . ووصل الأمر إلى حد القول بأن التأييد الأمريكي مجرد « ادعاء » ، وان بريطانيا تتآمر مع الأمريكان لتقطيع أوصال الدولة الجديدة . وبحرصاً من الحكومة السوفياتية على كيان دولة إسرائيل ، فقد هاجم ممثلوها بعثة برنادوت على أساس أنها تستهدف : « إحباط استقلال إسرائيل وتقوية الأردن الصنيعة البريطانية » [٤]

ولكن هذا الاتجاه لم يدم طويلاً ، ففي خريف ١٩٤٨ بدأت السياسة السوفياتية تخفف من غلوائها في الحماسة للدولة الجديدة وكان — على ما يبدو — السبب الرئيسي للبرود هو — كما يقول لاكور — تسوية العلاقات البريطانية اليهودية [٥] ، بعد خروج الإنجليز من فلسطين . ويقول اسحق دويتشر : « وسرعان ما أصبحت إسرائيل مركزاً أمامياً غربياً في الشرق الأوسط ، فلام ستالين قادتها على نكرانهم للجميل » [٦] . كما أن محاولته لإصلاح العلاقات السوفياتية الأمريكية عن طريق تأييد قيام دولة إسرائيل لم تثبت نجاحاً .

---

٤ ـ لاكور ؛ ولتر : الاتحاد السوفياتي والشرق الاوسط ، ص ٧٥ ١ .

٥ ـ المرجع السابق ، ص ١٧٥ .

6 - Deutscher , Issac : Ibid . P . 591 .

وتجمع المصادر المختلفة على أن ما اثاره قيام دولة إسرائيل من حماسة في اليهود السوفيات ، وخاصة العناصر المؤمنـة منهم ـ وهؤلاء هم الأغلبية ـ أشعر قادة الاتحاد السوفياتي ، وستالين خاصة ،ان المسألة اليهودية التي خالوها حلت في الاتحاد السوفياتي لم تحل ، وأن الحماسة الجديـدة تهدد بيقظة الروح اليهودية في الاتحاد السوفياتي من جديد . وقد كشفت حادثة الاستقبـال الحاشدة لجولدا مئيرأول مبعوثة دبلوماسية لإسرائيل في موسكو عما ذكرناه [٧] .

ولم يكن ستالين مستعداً للتسامح مـع مثل هذا النشاط اليهودي ـ على ما يبدو ـ . وكانت النتيجة اعتقال بعض اليهود ونفيهم .

من هنا بدأ التوتر . وزاد من حدته أن دولة اسرائيل بدأت تطالب بالسماح ليهود الاتحاد السوفياتي بالهجرة اليها . ولم يكن الاتحاد السوفياتي على استعداد لتلبية هذه الرغبة التي تعني تلبيتها فشل النظام السوفياتي في حل المسألة اليهودية .

وبدأت اوساط الحزب تشن حملة على دولة إسرائيل صنيعة

---

7 - Deutscher , Issac : Ibid.p . 591

الامبريالية ، كما أخذت تهاجم اليهود السوفيـات الذين أظهروا بالتعبير عن ولائهم لها عدم ولاء لوطنهم .

واتخذ ستالين قراراً بإغلاق الصحف اليهودية وايقاف المسارح وانهاء تعليم التلاميذ اليهود لغتهم (اليديش) ، وهي المنجزات التي حققها لهم عندما كان مفوضاً لشؤون القوميـات . وجرت تصفيات لشخصيات يهودية من ميـادين مختلفة ، ويروى بأن ستالين فكر في نقل اليهود السوفيات الى منطقة بيرا بيجان ، منطقة الحكم الذاتي اليهودي السالفـة الذكر ؛ ولكن ضرورات عملية حالت دون ذلك [٨]

رافقت ذلك حملة على « شذاذ الأفـاق ـ العـالميين » وذوي « الولاء المتذبذب » .

وبلغت ذروة الأزمة بين الاتحاد السوفياتي وإسرائيل خلال أزمة الاطباء اليهود (١٩٥٢ ـ ١٩٥٣) . وفي شباط من سنة ١٩٥٣ انفجر لغم في السفارة السوفياتية في إسرائيل ، فقطعت العلاقـات الدبلوماسية ، وظلت مقطوعة حتى تموز من تلك السنة .

---

8 - Deutscher , Issac :Ibid. p p (591 - 593)

وكانت الدعاية السوفياتية تبرر الموقف الجديد بالقول :« إن إسرائيل لم تعد الدولة المستقلة الديمقراطية التي أيد الاتحاد السوفياتي خلقها ، وانما تحولت ، بدلاً من ذلك ، آلة « وول ستريت » وبلداً رأسمالياً رجعياً ، تضطهد فيه الاقلية القومية العربية والجماهير الشعبية وتستغل [٩] .

ونستطيع القول بأن موقف الاتحاد السوفياتي ،أخذ يتحول لمصلحة العرب منذ سنة ١٩٥٤. ذلك ان المنطقة العربية اخذت تنفجر بعد النكبة . وكانت المعركة ضد الاستعمار تزداد اتساعاً يوما بعد يوم . بينما كانت دولة العصابات الصهيونية تزداد ارتباطاً به واعتماداً عليه . وفي سنة ١٩٥٥ كانت صفقة الاسلحة بداية عهد جديدفي تاريخ العلاقات السوفياتية العربية ،وفي تاريخ الصراع العربي ـ الصهيوني . ولم يمضِ عام حتى أيد الاتحاد السوفياتي مصر ضد العدوان الانجليزي الفرنسي ـ الاسرائيلي . ومنذ ١٩٥٥ حتى الآن ونطاق التعاون العربي ـ السوفياتي يتسع ، حتى أصبح الاتحاد السوفياتي المصدر الرئيسي للأسلحة بالنسبة للأقطار العربية التقدمية ، هذا عدا

---

٩ ـ لاكور ،ولتر : المرجع السابق ص ١٧٥.

المعونات والقروض والاتفاقات الاقتصادية . وتمضي العلاقات العربية السوفياتية قدماً لمصلحة التقدم والسلام . ولكن الموقف السوفياتي من « دولة اسرائيل » لم يتغير جذرياً عما كان عليه سنة ١٩٤٨ . فالقادة السوفيات يشجبون الصهيونية ، ولكنهم لا يتعرضون لدولة العصابات الصهيونية . وهم على استعداد لمهاجمة عدوان صهيوني على قرية عربية ، ولكنهم على غير استعداد لتأييد العرب ضد العدوان الصهيوني الكبير : احتلال القسم الاكبر من فلسطين ، واجلاء اكثر سكانها بقوة السلاح ، والتهيؤ لمعركة أخرى يوسعون فيها حدودهم ، ويجلون فيها المزيد من المواطنين العرب .

لقد حاول القادة السوفيات منذ البدء ان يميزوا بين الصهيونية وتأييد دولة العصابات الصهيونية ، وما زالوا عملياً يعتمدون هذا التمييز في سياستهم . ولكن كيف يمكن أن نهاجم الصهيونية نظرياً ونسكت عنها عملياً ؟ كيف يمكن ان نهاجم الصهيونية صاحبة الدعوة لخلق دولة صهيونية غازية ، ونسكت عن هذه الدولة الصهيونية الغازية ؟...!

وبينما تقف الاحزاب الشيوعية في الصين وكورية وفيتنام موقفاً لا لبس فيه ولا إبهام في تأييد العرب ضد الغزوة الصهيونية ، يظل الموقف السوفياتي باعثاً على القلق . فالخط العام للسياسة السوفياتية الخارجية هو خط تسوية « المشاكل » بالطرق السلمية . وليس هنالك أي دليل على أن الساسة السوفيات يرون أن

هنالك فرقاً بين الصراع العربي اليهودي ، وبين الخلاف الهندي الصيني ، أو الهندي الباكستاني .

لقد أيد القادة السوفيات ، في البلاغ النهائي لمحادثاتهم مع رئيس وزراء بريطانيا في ابريل سنة ١٩٥٦ اقرار « حل سلمي بين العرب واليهود ، على أساس الرضا المتبادل ، للخلاف القائم بين الدول العربية واسرائيل » ، وهم اليوم ، وكما تعترف المصادر الصهيونية « يحاولون دائبين ان يكبحوا جماح السوريين » . وتؤكد هذه المصادر أيضاً : « أن تأكيداتهم على الاعتدال في معالجة مشكلة اسرائيل باتت مألوفة في القاهرة »[10]. فإذا ما ربطنا بين هذا وبين الضغط العالمي الذي تمارسه الصهيونية العالمية على القادة السوفيات من اجل : (١) قطع امدادات الاسلحة عن العرب . (٢) مزيد من التعاون مع اسرائيل . (٣) السماح بهجرة اليهود السوفيات الى اسرائيل ، زاد قلقنا .

أن الاتحاد السوفياتي يرفض حتى الآن أن يعترف «بمنظمة التحرير الفلسطينية » ، ويرفض ان يستقبل وفداً رسمياً منها ، مع انه يعترف بدولة العصابات الصهيونية ، وله فيها سفير ، يحلو له أن يطلق التصريحات جزافاً عن التعاون الاسرائيلي — السوفياتي .

---

10 - Jewish observor, vol. xvi , No . 6,10 Feb . 1967, Kosigin and the vanishing Jew .

ان الصهيونية العالمية تطوق الاتحاد السوفياتي الان، كافعلت سنة ١٩٤٨ . انها تحاصره بقوى عديدة منها (١) الرأي العـام العالمي ، وخاصة اليسار الأوروبي ، (٢) قيادات الدول الغربية (الولايات المتحدة ، بريطانيـــا ، فرنسا) (٣) دول اوروبة الشرقية .

ولقد أخذت توطد علاقاتها مع بعض دول أوروبة الشرقية ، سياسياً واقتصادياً ، على أمل أن تحقق عن طريق ذلك عـدة أهداف ، منها: انتزاع مزيد من التأييد السوفياتي . ولقد نجحت في رومانيـا وكسبت على الصعيد الشعبي في تشيكوسلوفاكيا ، وسعت إلى احداث تغيير في بولندا ، ولكنها فشلت .

٢ ــ معلومات عن يهود الاتحاد السوفياتي

بعد سنة ١٩٤٨

استمر تدهور نسبة اليهود في الحزب والدولة بعد سنة ١٩٤٨. وقد أدت انتخابات سنة ١٩٥٠ ، التي جرت في الثاني عشر من آذار ، الى ما يسميه الكتاب اليهود استئصالاً كاملاً لليهود من اجهزة الحزب والدولة القيادية . فمن بين ٦٧٨ عضواً في سوفيات الاتحاد كان هنالك يهودي واحد ، هو لازار كاجا نوفتش ، ممثلا لاحدى الدوائر بطشقند. وكان هنالك شخص آخر يفترض بأنه يهودي ، هو مارك س . سبيفاك من ستالينو . وهذه النسبة اقل من ٣٣ و٠ ٪ ، مقابل ٦و٥٪ سنة ١٩٣٧ .

وكان في مجلس القوميات الذي يبلغ عدد اعضائه ٦٣٨ عضواً يهوديان معروفان وشخص ثالث يفترض بأنه يهودي . وهــــذه النسبة أقل من ٥و٠ ٪ مقابل ٦و٢ ٪ سنة ١٩٣٧ [١١] .

---

11 - Schwars, Solomon M., The Jews in The Soviet Union, p. 364 - 365 .

وكان هنالك ثلاثة من اليهود في مجلس السوفيات الأعلى سنة ١٩٥٨ من بين ١٣٣٦ عضواً ، أي بنسبة ٢٥و٠ ٪ . ولم يكن يوجد بين اعضاء اللجنة المركزية البالغ عددهم ١٢٢ الا شخصان من اليهود سنة ١٩٦٠ (١٢) .

واصاب اليهود في القوات المسلحة مـــا أصابهم في الميادين الأخرى. وابتدأ التدهور الحاد في نسبتهم بعد قيام دولة اسرائيل. فبين سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٥٣ احيل على التقاعـد ثلاثة وستون جنرالاً ، ومائة واحد عشر كولونيلا ، ومائة وتسعة وخمسون من مختلف الرتب. ولم يكن في نهاية هذه الفترة يهودي واحد بين مائة من أعلى قادة الجيش الكبار .

وتجمد الوضع مـــدة ثلاث سنوات ، لتبدأ حملة تطهيرات جديدة بعد حرب السويس سنة ١٩٥٦ . وقد حول من تبقى من اليهود من الخدمة الفعلية إلى الاحتياط غير الفعال . إلا ان هناك قطاعات لم يمس اليهود فيها هي قطاعات الخدمات الطبية والهندسية والتموين والنقل (١٣) .

---

12 -Schechtman, Joseph 'Star in Eclpise : Russian Jewry Revisited . pp 61 - 63 .

13 - Ibid. pp (53 - 55) .

ويلاحظ أن العسكريين اليهود لا يرسلون في بعثات إلى الخارج ، مع الوفود العسكرية السوفياتية ، ولا يشتركون في الوفود التي تستقبل الوفود الخارجية .

وتشير بعض المصادر الصهيونية إلى أن خروشيف قام بنشاط كبير لتطهير قيادات الحزب السوفياتي والاحزاب الشيوعية في اوروبة الشرقية من اليهود . ويروى عنه أنه قال في اجتماع اللجنة المركزية لحزب العمال المتحد في بولندا :

« انني اعتقد أنكم في بولندا ايضاً تعانون من تكوين شاذ للكوادر القيادية ، كما عانينا نحن منه ... ان نسبة المسؤولين الكبار من اليهود هي لا شيء الآن في بلادي — اثنان أو ثلاثة في الألف . ولكن في بلادكم ؟ كم هنالك من اليهود في بولندا ؟ حوالي ٣٠ أو ٤٠ ألفاً ... وعليه ما هي نسبتهم بالنسبة لمجموع السكان ، وما هي نسبتهم في الكوادر القيادية ، بما فيه اللجنة المركزية للحزب » ، واضاف : « على الحزب الشيوعي البولندي أن يتأكد بأن في قيادته بولنديين فقط » .

ولقد اكد خروشوف هذا للبولنديين اكثر من مرة . ومما قاله لهم سنة ١٩٥٦ في التاسع عشر من اكتوبر : « لقد جئنا لنمنعكم من تسليم بولندا للأمريكيين والصهيونيين ... ان لديكم كثيراً من الإبراهيميين في قيادتكم » (١٤) .

14- Ibid. P. 81 -85.

واذا كان يهود الاتحاد السوفياتي قد تضاءلوا في الميدان السياسي، فإنهم قد برزوا في ميادين أخرى. ففي ميدان البحوث مثلاً كان عدد العاملين من اليهود سنة ١٩٥٨ قرابة تسعة وعشرين ألفاً (٢٨٫٩٦٦) . وقد ارتفع هذا العدد سنة ١٩٦٥ الى ثلاثة وخمسين ألفاً تقريباً (٥٣ و ٠٦٨) وهذه نسبة عالية جداً اذا ما قورنت بقوميات أخرى . ذلك ان الاوكرانيين الذين كانوا يعملون في نفس الميدان لم يزد عددهم عن ثمانية وعشرين الفا تقريباً (٢٧٨٠٣) سنة ١٩٥٨ ، ولم يزد عن واحد وسبعين ألفاً تقريباً سنة ١٩٦٦، مع أن الاوكرانيين يعدون عشرين ضعفاً من اليهود. ويبلغ عدد الاعضاء والاعضاء المراسلين اليهود في اكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي سبعة وخمسين شخصاً، بينما يبلغ عدد هؤلاء عشرين في اكاديمية العلوم الطبيعية .

ويبلغ عدد اليهود الاختصاصيين الحائزين على تعليم ثانوي عال او متخصص ، والذين يعملون في الاقتصاد الوطني السوفياتي (٤٢٧٫١٠٠) سنة ١٩٦٠ ، و ٤٥٧٫٤٠٠ ، سنة ١٩٦٤ و ٤٨٢٫٤٠٠ سنة ١٩٦٦. وهذا يعني ان ١٤ ٪ من السكان اليهود في البلاد حائزون على تعليم ثانوي عال او متخصص ، بينما لا تزيد النسبة في البلاد عن ٤٫٩ ٪ .

ويعود السبب ، بالطبع ، في هذا كله الى ان اليهود سكان مدن كما بينت . ذلك ان الاحصاء الاخير اظهر أن ٩٦ ٪ من

اليهود يعيشون في المدن [15] .

وما ينطبق على ميدان البحوث ينطبق على مجالات أخرى. ففي موسكو ١٧٩٣٦ طبيباً (physician) بينهم ٦٧٠٩ من اليهود ، أي بنسبة ٣٧,٤ ٪ . وفي موسكو ايضاً ١١٩٠ محامياً بينهم ٤٦٥ من اليهود. ويشكل اليهود في لينينجراد وخاركوف نسبة ٥٠ ٪ من كل المحامين . وهـــذه النسبة تزداد في كييف واوديسا. وهم ممثلون جيداً في ميدان الآداب والفنون والمسرح . ففي مؤتمر الفنانين السوفيات الذي عقد سنة ١٩٥٧ كان عدد الحضور ٥٧٩، وكان اليهود ٩ ٪ ، وفي مؤتمر الكتاب السوفيات الذي عقدسنة ١٩٥٤ كان عدد المشاركين ٧٣٨ بينهم ٧٢ يهودياً، اي ٩,٨٪. أما الصحافة والاذاعة فعدد اليهود فيها قليل اليوم ، مع أن الأمر كان عكس ذلك قبل الحرب [16] .

---

15 - Rabinovich, Solomon ,Jews inThe Soviet Union, Novosti Press Agency Publishing House, Moscow, P. 53.

16- Schechtman, Joseph B., Star in Eclips, pp 56 - 57.

٣ ـــ قضية الهجرة من الاتحاد السوفياتي إلى اسرائيل

سمح للقليل من اليهود بالهجرة من الاتحاد السوفياتي قبل سنة ١٩٤٨ . فقد هاجر بين ١٩١٩ و ١٩٣١ من بين اليهود في الاتحاد السوفياتي ٣١,٣٠٠ ، ولم تنجح الا قبضة منهم بمغادرة الاتحاد السوفياتي في الثلاثينات .

أما بعد سنة ١٩٤٨ ، فقد سمح بهجرة خمسة من اليهود إلى اسرائيل ما بين (١٩٤٨-١٩٥١) . وكان من هؤلاء الخمسة مقعد واربعة عجائز . ولم يسمح لاحد سنة ١٩٥٢ بالهجرة . وقد تغير الوضع قليلاً في عهد مالينكوف (تموز ١٩٥٣ - ايلول ١٩٥٥) . فسمح لمائة وخمسة وعشرين مهاجراً ، من سكان مقاطعة كانت سابقاً تابعة لرومانيا ، وضمت في الحرب العالمية الثانية إلى الاتحاد السوفياتي ، بالهجرة الى اسرائيل . ووصل إلى اسرائيل

في الفترة (يناير – ابريل ١٩٥٦)مائة وثمانية عشر مهاجراً (بينهم رجل واحد في الخامسة والثلاثين من آسيا الوسطى). وكان هؤلاء من كل انحاء الاتحاد السوفياتي . أما سنة ١٩٥٨ فقد وصل إلى اسرائيل ألف ومائة وعشرون مهاجراً .

ومع أن باب الهجرة من الاتحاد السوفياتي كان مغلقاً ، فيما عدا هذه الارقام المحدودة المرتبطة بحالات خاصة ، فان ثلاثمائة ألف من اليهود هاجروا من رومانيا وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا وهنغاريا في السنوات (١٩٤٨ – ١٩٥٥) . والجدير بالذكر أن بعض يهود الاتحـاد السوفياتي كانوا يهاجرون الى بولندا ، ومن هناك الى اسرائيل .

وكان الاتحاد السوفياتي ، وما زال ، يواجه ضغطاً صهيونياً منظماً لفتح باب الهجرة لليهود . وما من شخصية رسمية أو غير رسمية تزور الاتحاد السوفياتي الا وتكلف بدراسة الموضوع مع القادة السوفيات . وكان آخر الذين بحثوا الموضوع مـع القادة السوفيات رئيس الوزراء البريطـــاني ولسن ، في آخر زيارة له للاتحاد السوفياتي .

ولقد ردت الازفستيا سنة ١٩٦٦ في ايلول على حملة الدعاية المضادة للاتحاد السوفياتي التي تشنها الصهيونية العالمية ، مبينة أن اسباب هذه الحملة هي محاولة الضغط على الاتحاد السوفياتي لفتح المجال امام هجرة يهود الاتحاد السوفياتي، بعد أن فشلت الصهيونية

في دفع يهود امريكا الشمالية والجنوبية الى مغـــادرة البلاد التي يقطنون فيها للتوطن في اسرائيل [١٧] .

وكان خروشيف يجيب اجابات لبقة او مطمئنة عندمـــا يسأل عن الموضوع . وقد اجاب اليانور روزفلت عندما قابلته في موسكو سنة ١٩٥٨ : « أنا أدري ، ولكن الوقـــت الذي يكون فيه كل من يريد الذهاب قادراً عليه سوف يجيء» [١٨] .

وحـين سأل كوسيجين سنة ١٩٦٦ في باريس عن الموضوع أجاب :

« أما فيما يتعلـــق بلم شمل العائلات، اذا كان افراد بعض العائلات يريدون ان يلموا الشمل ، او اذا كانت هنـــاك بعض العائلات تريد ان تغادر الاتحـاد السوفياتي ، فاننا لنرحب ان يفعلوا ذلك ، وما من مشكلة هنا »[١٩] .

17- Ibid. pp 198 -199.

١٨ ـ لاكور ؛ ولتر : الشيوعية والقومية في الشرق الاوسط ص٣١٣.
١٩ ـ المرجع السابق ، ص ٣١٥.

٤ ـ بيرا بدزان ثانية

زار أحد مراسلي النيويورك تايمز بيرا بدزان سنة ١٩٥٥ ، وقد ذكر أنه لم تعد هنالك مدارس لتعليم اليديشية ، وان المسرح الذي كان يعرض اعمالاً فنية باليديشية قد حول إلى ناد لانه غير مربح . وكان مما ذكره انه لم يكن هنالك مدارس لتعليم اليديشية . وكانت جريدة « البيرا بدزان ستار » تصدر ثلاث مرات في الأسبوع باليديشية . أما الاذاعة فكانت تبث باليديشية مرتين في الأسبوع .

وتحدث خروشيف مع مراسل الفيغارو الفرنسية سنة ١٩٥٨ ، فاعتبر مشروع بيرا بدزان فاشلاً ، مشيراً الى ان اليهود لا يحبذون العمل الجماعي ، والنظام الجماعي . وتحركت أجهزة الاعلام السوفياتية على أثر نشر المقابلة في ٩/٤/١٩٥٨ ، فأنكرت ما ورد على لسان خروشيف . وظهرت في ٦/٨/٥٨ مقابلة في جريدة سوفيتسكايا روسية « Sovietskaya Rossia » بقلم

« V. Pakhman » تحدث فيها عن تجربة بيرا بدزان ، في محاولة لاثبات انها لم تفشل ، وقد ترجمت المقـــالة الى عدد من اللغات ، ونشرت في صحف عديدة .

وأذاع راديو موسكو تحقيقــاً سياحياً « Travelogue » في نوفمبر من العام ذاته ، وصف فيه وصفاً خلاباً جمال الاقليم ، وتحدث بحرارة عن منجزاته ، ولم يذكر ساكنيه من غيراليهود، مع انهم نصف السكان .

وقد سمح في أواخـــر سنة ١٩٥٨ وأوائل سنة ١٩٥٩ لعدد من الصحفيين الشيوعيين بزيارة المنطقة ، بينما منع آخرون. وكان يبدو واضحاً أن الذين منعوا هم الأكثر عناية بيهودية المنطقة .

ومن الذين زاروا المنطقة Dominik Hosodyuski مراسل جريدة Swiat في وارسو . يقول هذا المراسل « بأن يهود بيرا بدزان لا يعلقون أهمية كبرى على أصلهم اليهودي. إنهم على العكس من ذلك يتمثلون بسرعة، بل يميلون الى التمثل... ».ومما يذكره هذا المراسل بأن الآباء اليهود يفضلون إرسال أبنائهم الى المدارس الروسية حتى يستطيعوا إتمام تعليمهم. ويختم هذا الصحفي تحقيقه بقوله : « ان تجربة تحويل اليهود الى مزارعين ، واسكانهم شرق منغوليا ، في مكان لا توجد فيه تقاليد يهودية لا يمكن ان تكلل بالمجد . فالبيرا ليس الأردن . لم يكن الأردن ابـــداً ... ولن يكون » .

وذكر ماكس فرانكل « Max Frankel » مراسـل النيويورك تايمس في أيار سنة ١٩٥٩ بأن اليديشيـة لا تعلم في المدارس ، ولا تطبع كتب بهذه اللغة ، ولا تعرض أفلام بها . أما صحيفة بيروبدجانرشتيرن فتصدر ثلاث مرات بالأسبـوع باليديشية ، وفي صفحتين فقط ، وتوزع الف نسخة .

ويقول ب.ز جولدبرج في كتابه المذكور آنفاً ، والصـادر سنة ١٩٦١ : « واليوم نستطيع أن نقول بتأكيد مطلق انه لا توجد مدرسة واحدة تعلم اليديشية ، أو أية وسيلة أخرى لتعليم هذه اللغة في الاقليم كله » (ص ٢٢٥). ومما يذكره أن اليديشية ليست لغة رسمية الآن ، وان اللافتات المرفوعة على مكاتب الحزب ودوائر الحكومة ، مكتوبة بالروسيـة ، بينما كانت باليديشية من قبل .

ثم يقول الكاتب ذاته : « لقد مات الحكم الذاتي اليهودي في بيرا بدزان فلماذا لا يدفنونه » .

ويشير سلمون رابينوفيتش ، في كتابه الآنف الذكر ، الى أن عدد سكان المقاطعة كان حسب إحصاء سنة ١٩٥٩ مائـة واثنين وستين ألفاً ، يبلغ عدد اليهود منهم اربعة عشر ألفـاً واربعمائة وخمسة وعشرين ، أي ٨و٨ ٪ فقط ، بينما يبلغ عـدد الروس ٢٨١و١٢٧ ألفاً ، أي ٢و٧٨ ٪ ، والاوكرانيين ٤٢٥و١٤ ،

أي ٩و٨ ٪ والبيلوروس ١٥٧٨ ، أي ١ ٪ [٢٠] .

ويبدو هذا العدد أقل كثيراً مما توقعه سفير الولايات المتحدة في موسكو ، ولتر بيدل سميث ، الذي كتب يقول بأن عدد اليهود في بيرا بدزان « لا يتجاوز نصف سكان المقاطعة »[٢١] .
وقال سلمون رابينوفيتش تعليقاً على قلة عدد السكان اليهود في بيرا بدزان :

« قد يسأل القارىء : لماذا هنالك هذا العدد القليل جداً من اليهود في الاقليم ؟ » .

وأجاب :

« يبدو لي ان أحد الاسباب الرئيسية هو هذا : مع نهاية الثلاثينات ، وخـــلال سنوات الحرب خاصة ، لم يكن هنالك حاجة لأن يتحرك يهودعاملون. لماذا يغادر امرؤ يعيش في فينتسا أو كييف أو سفيرد لوفسك مكاناً عاش فيه سنوات طوالاً ، ويتنازل عن عمله الدائم ويهجر اصدقاءه ومعارفه ، وقد تكون هنالك أسباب أخرى ؛ وبالطبع فإن الملامة لا تقع على السلطة

20 - Rabinovich, Solomon, Ibid. P. 28.

٢١ ـ صفوة ، نجدة فتحي : اليهود والصهيونية في علاقات الدول الكبرى سنة ١٩٦٧ ؛ ص ٤٠ .

السوفياتية بسبب أن عشرات الألوف ليس مئـات الألوف قد توجهت الى بيرابدزان »[٢٢] .

ومع ان اليهود أقلية في بيرا بدزان فما زالت تدعى المنطقة اليهودية ذات الحـكم الذاتي .

---

22 - Rabinovich, Solomon, Ibid. P. 79.

٥ ـ اليهود في كتابين سوفياتيين

لم أستطع الحصول على أي مرجع سوفياتي ، منشور باللغات الأجنبية ، غير مؤلفات ستالين ولينين ، يفيد في دراسة القضية المطروحة في هذا الكتاب . ولكني وجدت ، سنة ١٩٦٧ ، كتابين صادرين بالانجليزية عن موسكو * ، عنوان الأول : « سكان الاتحاد السوفياتي » بقلم اي. بيساريف ، وعنوان الثاني: « اليهود في الاتحادالسوفياتي » بقلمسولومون رابينوفيتش، الصحافي اليهودي .

وليس في الكتاب الأول إلا فصل يفيد دراستنا عنوانه : « التكوين القومي لسكان الاتحاد السوفياتي ». ولكن ليس في

* صدر الكتاب الاول عن دار التقدم بموسكو ؛ والثاني عن وكالة انباء نوفوستي . ويشير التعريف بالكتاب الثاني الى ان الكاتب اصدر كتاباً آخر عن اليهود في الاتحاد السوفياتي ؛ سنة ١٩٦٥ .

هذا الفصل أية إشارة إلى اليهود من قريب أو بعيد ؛ مع أن الكاتب يذكر بأن في الاتحـــاد السوفياتي « حسب الاحصاء الأخير أكثر من مائة قومية مختلفة . ويعطي التقرير الاحصائي أسماء مائة وتسع من القوميات ، وتأتي تحت العنـوان العـام : « قوميات أخرى » مجموعة من سبعة عشر الف انســان ، أي قسم صغير جداً من السكان » .

ويعدد المؤلف واحدة وثلاثين قومية ، موزعـــة على خمس عشرة جمهورية اتحادية . وبينما يذكر أناساً مثل المادي والتــتر والياقوت ، عــددهم أقل من عدد اليهود كثيراً ، فانه لا يذكر اليهود .

ويشير أحد الهوامش في الكتاب الى أن استمارة احصاء سنة ١٩٢٦ وحدها تضمنت بنداً عن « الأصل العرقي ». بينما اكتفت احصاءات سنة ١٩٢٠ وسنة ١٩٣٩ وسنة ١٩٥٩ بالاشــارة الى « القومية » (Nationality) . وعلى هذا الأساس ، يصبح اليهود موزعين على قوميات الدول المؤلفة للاتحاد [٢٣] .

أما الكتاب الثاني فيتضمن معلومات أوفر عن اليهـــود في الاتحاد السوفياتي . ويمكن ان يعتبر أغنى مرجع سوفياتي على

---

23 - Pisarev I. ,The Population of The U.S.S. R.,Progress Publishers. Moscow pp(60 - 73) .

صغر حجمه .

ولكن ما ان يبدأ المرء بقراءة الكتاب ، حتى يحس بأن الكاتب الاشتراكي الماركسي ، يخفي ميولاً صهيونية . ذلك انه لا يلبث في الصفحة الثانية من النص (صفحة عشرة من الكتاب) أن يكشف عن هذه الروح عندما يشير الى ان اليهود « حرموا من أرضهم ومن موطنهم القديم ... » [٢٤] وهو عندما يتحدث عن اضطهاد النازية لليهود يتحدث عنهم باسم « شعبي » (My People) .

ومن المعلومات التي يقدمها ان عدد اليهود كان ، حسب احصاء سنة ١٩٥١ ، ٢،٢٦٨،٠٠٠ ، وأنهم لا بد من ان يكونوا ، أصبحوا ثلاثة ملايين سنة ١٩٦٦ * .

ويبرر الكاتب عدم وجود مدارس باليديش قائلاً : « لقد كان في نهاية الثلاثينات مجرد حفنة من المدارس اليهودية . ولقد مر أكثر من ربع قرن منذ ذلك الحين . فهل نستطيع ان نقول الآن ، في الستينات ، بأن هنالك حاجة موضوعية حقيقية لمدارس يهودية في أي جزء من البلاد؟ انني اعتقد أن كلا . وانني

---

24 - Rabinovich, Solomon, P. 10.

* يرى رودنسون انهم حوالي خمسة ملايين مثلاً ... الا ان الفرق يسجل في خانات قوميات أخرى .

لا أعني بهذا ، طبعاً ، بأنه لا يوجد أناس في الاتحاد السوفياتي يريدون تعلم اليديش . هنالك مثل هؤلاء الناس بلا شك . ليس هنالك الكثير منهم ، ولكنهم موجودون . وفي رأيي ، أن الشكل المناسب لتعلم هؤلاء الناس ، يمكن ان يوفر بواسطة دروس خاصة ، أو دورات أو الدراسة بالمراسلة »[٢٥] .

ويشير الكاتب إلى ان : سبعة أعشار السكان اليهود (في الاتحاد السوفياتي) اعتبروا اليديش لغتهم الأصلية (Native) سنة ١٩٢٦ ، ولكن النسبة انخفضت الى الربع سنة ١٩٥٩ .

أما بالنسبة الى الموقف من الصهيونية ، فهو يعلن أن «اليهود ، ليس الشباب بل كبار السن ايضاً ، ليس لديهم ما يجمعهم بالايديولوجية الصهيونية ، التي هي غريبة عن وجهات نظرهم ، وطريقة تفكيرهم ، ونفسيتهم ، وأسلوبهم في الحياة . ان وجود شواذ ممكن بالطبع . ولكنهم ليسوا نماذج لليهودي السوفياتي ، الذي يكره ضيق الأفق القومي والعزلة . وهم يعرفون جيداً ان الطريق الى حياة جديدة تمر عبر تعزيز الصداقة بين الأمم »[٢٦] .

والكتاب على ما فيه من معلومات لا يطرح مشكلة ... انه يقدم واقعاً ويبرره . والظاهرة الهامة التي يؤكدها هي الاندماج

25 - Rabinovich, Solomon, P. 35

26 - Rabinovich, Solomon, P. 63

(Assimilation) . وهذه الظاهرة عامة ولا تتعلق باليهـــود وحدهم .

* * *

ان الكتابين يمثلان سياسة الاتحاد السوفياتي تجاه اليهود ، أحدهما يتجاهل وجودهم تجاهلاً تاماً .. والآخر يحاول ان ينفي وجود مشكلة ... من خلال التأكيد على صحة خـط السياسـة السوفياتية ، منذ ثورة اكتوبر حتى الآن ، بشأن اليهود .

٦ ـ اليهود والمسألة القومية
موقف شيوعي أوروبي

كان لا بـد من أن تطرح قضية اليهود والمسألة القوميـة اليهودية بعد قيام « إسرائيل » طرحاً جديـداً في الأوساط الماركسية . ذلك أن قيام « إسرائيل » جعـل المسألة اليهودية تكتسب طابعاً جديداً . وإذا كان يهود الاتحـاد السوفياتي لا يشكلون قومية فما وضع يهود « إسرائيل » ! .

وقد طرح الاستاذ هايمن ليفي ، وهو عالم إنجليزي يهودي ، وعضو في الحزب الشيوعي البريطاني هذه المسألة سنة ١٩٥٨ [٢٧] .

---

27 - Levy Hyman : «Jews and The National Question», Hillway Publishing Company,London.

كان ليفي قد زار الاتحاد السوفياتي ، في عداد وفد من الحزب الشيوعي البريطاني سنة ١٩٥٦ ، من أجل أن يدرس وضع اليهود هناك . وقد كان الكتاب الذي نقدمه هنا نتيجة لهذه الرحلة .

وأول ما يلاحظ قارىء الكتاب، أن المؤلف يعتبر «اليهود» شعبه : « إنني يهودي وأنا معني بمصير شعبي » هكذا يقدم لنا المسألة البروفسور ليفي .

وسأحاول هنا أن ألخص موقفه من المسألة اليهودية . إنه يرى :

أولاً : أن اليهود المنتشرين في جميع أنحاء العالم ليسوا أمة « فمن المستحيل القول بأن هذا الشعب المنتشر انتشاراً واسعاً ، والذي يدعى اليهود ، هو أمة ، أمة واحدة » . وهو « ليس طائفة دينية ، وليس في كثير أو قليل هوية ثقافية محددة »[٢٨] ذلك أن بين اليهود اختلافات ثقافية بسبب تصنيفهم الطبقي في المجتمع الذي يعيشون فيه ، كما ان بينهم وجوه شبه ثقافية تعود أصولها إلى التاريخ الماضي . وهم « ليسوا موحدين في اللغة من بلد إلى آخر »[٢٩] . « إن كلامهم العادي هو كلام الشعوب التي

---

٢٨ - المرجع السابق ص ٣٩ .
٢٩ - » » » » .

يقطنون بينها ، والتي تلقوا ثقافتهم العامة معها : الانجليزية الروسية والفرنسية ، واليديشية ، بالنسبة لهؤلاء الذين تعود جذورهم إلى المجتمعات اليهودية في اوروبا الشرقية مباشرة » [٣٠].

ومع ذلك فهو يرى أن اليهود شعبه .

ثانياً : أن « إسرائيل أمة الآن ، تتكشف عن كل المعالم التي طالب ستالين توفرها في الأمة ... » [٣١].
وإذا كانت اطروحات ستالين حول الأمة ، ضرورية في الماضي ، « فإنها في ظل الظروف الحديثة : المواصلات ، النقل ، التمويل ، وبالامكانيات المتوافرة لاستنهاض الرأي العام العالمي لمصلحة جماعة قومية في حالة تكون ، ليست كلها أو معظمها ضرورية من أجل ميلاد أمة أو إعادة ولادتها » [٣٢].

ثالثاً : أن « الرأسمالية هي التي طرحت المسألة اليهودية ،

---

٣٠ ــ المرجع السابق ص ٣٧
٣١ ــ « « ص ٥٤
٣٢ ــ « « « (١٩ ــ ٢٠)

ولكنها لم تكن قادرة على حلها ، لانها ، ببساطة ، كانت غـــير قادرة على استيعاب اليهود ، وعلى أن تجعلهم يتلاشون » [٣٣] . ذلك أن « الرأسمالية ما أن وطدت نفسهابنجاح،حتىلم تكن لديها حاجة معينة لليهود في أي دور خاص » [٣٤] . فـاليهود كان لهم دور تقدمي زمن اقتصاد الكفاف ، أي قبـــل نشوء المجتمع الرأسمالي [٣٥] . وإذا كانت المسألة اليهودية هي بنت الرأسمالية المأزومة ، فإن إسرائيل هي كذلك [٣٦] .

رابعاً : إن الماركسيين توقعوا ان تحل مشكلة اليهودي في ظل الاشتراكية ولكن توقعاتهـــم منيت بالفشل [٣٧] . وإذا كان من المتفق عليه أن الرأسمالية قد اختفت من الاتحاد السوفياتي ، فهل نستطيع القول بأن المسألة اليهودية قد حلت ؟ ... وعلى الرغم من ان المؤلف يجيب على هذا السؤال إجابة لبقة في البدء [٣٨] ، معلنا بأنه « لا توجد أجوبة واضحة

---

٣٣ ـ المرجع السابق ص ٥١

٣٤ ـ » » » ٥١

٣٥ ـ » » » ١٥

٣٦ ـ » » » ٥٥

٣٧ ـ » » » ٥٢

٣٨ ـ » » » ١٣

محددة من المصادر الروسية ، وانه إذا كان هنالك أجوبة فستكيف مع وجود إسرائيل » فــإن مضمون كتابه يدل دلالة واضحة على أنه يعتقد بان الاتحاد السوفياتي كان عاجزاً عن حل المشكلة ، وانه قدم تحليلاً خادعاً لها ، بينما حاول المؤلف أن يكشف في كتابه « أين يقع هذا الزيف »(٣٩) .

خامساً : ان إسرائيل مستعمرة أمريكية ، وانها تابعة من الناحية الاقتصادية . ذلك أن إسرائيل تعتمد في التوظيف المالي في الثلث على الرأسمال الأميركي ، وعلى المساعدات بالثلث الآخر . فإذا ما نظرنا إلى سجل تصويتها في الأمم المتحدة يبدو واضحا مدى تبعيتها للولايات المتحدة (٤٠) .

سادساً : إن المسألة اليهودية ، ومسألة حلها ، ليست مسألة أرض (٤١) . وعلى هذا يرى المؤلف أن محاولة الحزب والحكومــة في الاتحاد السوفياتي إنشاء مقاطعة يهودية ذات حكم ذاتي لاتختلف عن محاولة

---

٣٩ ـ المرجع السابق ص ١١

٤٠ ـ المرجع السابق ص (٥٧ ـ ٥٨)

٤١ ـ المرجع السابق ص ٥٤

الصهيونية إنشاء دولة في فلسطين [٤٢] ثم انه يرى ان محاولة إنشاء هذه المقاطعة في بيرا بدزان « غير واقعية وغير تاريخية » ذلك أن يهود الاتحاد السوفياتي سكان مدن بشكل رئيسي [٤٣] .

سابعاً : ان « تأييد السوفيات لعبد الناصر ورفاقه ، في المرحلة الحاضرة من الكفاح ضد الامبريالية ، وعلى الشكل الذي يعبر به عن نفسه في الشرق الأوسط ، معناه التنكر لوحدة الطبقة العاملة بين العرب واليهود » [٤٤] . و« هذا بالنسبة للماركسي ثمن باهظ ، ويثير الوضع كله مسألة خطرة في الأخلاق الماركسية . فمتى ، وإلى أية حد يبرر إضعاف وحدة الطبقة العاملة من أجل كسب حلفاء مؤقتين في الكفاح ضد الامبريالية » [٤٥] . ولا شك أن هذا الحلف سيعني منع هجرة اليهود من الاتحاد السوفياتي إلى إسرائيل [٤٦] .

---

٤٢ ـ المرجع السابق ص ٧٦

٤٣ ـ المرجع السابق « ٧٦

٤٤ ـ المرجع السابق « ٧٤

٤٥ ـ المرجع السابق « (٧٤ ـ ٧٥)

٤٦ ـ المرجع السابق « ٧٥

ثامناً : إن السوفيات ارتكبوا خطأً غير ديالكتيكي إذ اعتبروا أن اليهود يجب أن يصبحوا مواطنين سوفيات عاديين ما داموا ليسوا أمة . ومنطق « إما أو » هذا يعني « ان كل مجالات التعبير الثقافي اليهودي يجب إن تسد ، وان أفواه هؤلاء الذين يسعون لتطويرها أو يتحدثون باسمها يجب أن تكم »[٤٧] . ولقد كان من نتيجة إنهاء وسائل التعبير هذه «استثارة مشاعر معادية للسوفيات»[٤٨] .

تاسعاً : أن اليهود اختفوا من الميدان السياسي « فاليوم ليس هنالك من يهودي واحد في مكان سياسي مرموق »[٤٩] أما في الميادين الأخرى كالتكنيك والتكنولوجيا «فاليهود في مراكز ذات مسؤولية كبيرة»[٥٠]. ولكن المؤلف يؤكد بأن سياسة هذه طبيعتها لا بد من أن تنتقل من الميدان السياسي إلى الميادين الأخرى[٥١] .

---

٤٧ ـ المرجع السابق ص ٧٧
٤٨ ـ « « « ٧٩
٤٩ ـ « « « ٨١ ـ ٨٣
٥٠ ـ « « « ٨٣
٥١ ـ « « « ٨١

عاشراً: ان هنالك ما هو شبيه بالتمييز ضد اليهود في الاتحاد السوفياتي ولكن هذا التمييز ليس النمط الكلاسيكي لمعاداة السامية . فاليهود لم يعترف بهم أقلية قومية [٥٢]. ويتساءل المؤلف : «هل أنزل مستوى اليهود مرة أخرى إلى مستوى مواطن من الدرجة الثانية، كما كانت الحال في عهد القيصرية . وإذا كان الأمر كذلك فهل هذا نابع من تحليل زائف لمشاكل هذا الشعب ؟ وماذا يكون حقاً المواطن الاشتراكي من الدرجة الثانية » [٥٣] .

والملاحظ أن هذا الشيوعي البريطاني، يمثل نمطاً من الشيوعيين الأوروبيين، الذين يتبنون الماركسية على طريقتهم الخاصة . فهؤلاء لا يتبعون نهجاً ماركسياً في التحليل، ولا يسترشدون بآراء ماركس ولينين في مواقفهم ... ولا يتخذون مواقف ثورية من قضايا التقدم البشري . ولهذا فهم يرتكبون أخطاء فادحة .

ان هايمن ليفي، يتجاهل الاشارة إلى مواقف ماركس أو

---

٥٢ ـ المرجع السابق ص ٨٢

٥٣ ـ » » » ٨٥

لينين من « المسألة اليهودية » ! لماذا ؟ بالطبع لأنه لا يريد أن يبدأ نقاشاً ينطلق من دحض آرائها من المسألة اليهودية . ولو فعل ذلك لظهر تهافته ، ولرفضه جمهور كبير من الماركسيين . ثم انه لا يملك المنطق الذي يجعله قادراً على دحض آرائها .

وان ليفي ، فوق هذا ، يتجاهل الإشارة إلى مواقف ماركس ولينين من قضايا التحرر القومي، وخاصة مواقف لينين. ذلك انه لوناقش موقف اللينينية من قضية التحرر القومي لاضطر أن يقف ضد إسرائيل ، وهو ما لا يريده .

وبعد هذا، فإن ليفي لا يتعرض لموقف لينين من حق تقرير المصير ، ومن قضية التمثل واندماج الشعوب ، لأن ذلك ليس في صالح قضية الدفاع عن الثقافة اليهودية اليديشية أو غيرها .

وهكذا نجد كاتباً عالماً شيوعياً يقف إلى جانب الصهيونية في الحملة على الاتحاد السوفياتي الذي يعمل على دمج اليهود ثقافياً وتمثلهم .ومطالبه لاتختلف عن مطالب الصهيونية العالمية :حق الهجرة وحق تنمية الثقافة الوطنية اليهودية .

وليفي بالطبع ، ككل الشيوعيين الغربيين ، لا يطرح على

نفسه السؤال التالي : لماذا تثار حملة ضد الاتحاد السوفياتي لأنه لا يسمح لليهود بالهجرة ، بينما لا يجري الإلحاح على يهود الولايات المتحدة بضرورة الهجرة ؟ ثم لماذا يطالب الاتحاد السوفياتي بتنمية الثقافة الوطنية اليهودية ولا تطالب الولايات المتحدة الأميركية؟؟

٧ ـ ماركس والشعوب الرجعية

بينما كان ماركس يؤيد حركات التحرير في بولندا وايرلندا ، وقف ضد سلاف الجنوب وحركاتهم القومية، وأيّد سحقهم على اعتبار أنهم شعوب رجعية . وكان سبب موقف ماركس نظرته الواعية الشاملة الى قضية التقدم على الصعيد العالمي .

وكانت الشعوب التي أيد ماركس سحق حركاتها القومية شعوباً بكل ما في الكلمة من معنى، تعيش في مجتمعات طبيعية قابلة للتطور. فإذا كانت تلعب دوراً رجعياً في مرحلة معينة ، فإنها مؤهلة لأن تلعب دوراً تقدمياً في مرحلة أخرى .

فماذا ترى ماركس كان سيقول لو رأى دولة الصهاينة ؟ انه اعتبر اليهودي الفرد رجعياً فماذا كان سيقول في دولة الصهاينة؟ ان منطق ماركس واضح في هذا المجال ، ومنطق لينين واضح ايضاً . فالصهيونية : « في جوهرها خاطئة ورجعية بصورة مطلقة ، وان فكرة القومية اليهودية ذات صفة رجعية ضارة

لا بالنسبة لمعتنقيها فحسب ، بل وكذلك للذين يحاولون خلق انسجام بينها وبين الافكار الاشتراكية »[٥٤].

هذا ما يراه ماركس ولينين فما قول بعض ماركسيي اليوم الذين يدافعون عن وجود الدولة الصهيونية ؟

---

٥٤ ـ لينين ، حق الامم في تقرير مصيرها ص (١٩١ ـ ٢٠١)منشور مع ملاحظات انتقادية حول المسألة الوطنية ، طبع موسكو .

٨ ــ موقف الشيوعيين العرب

عاش الشيوعيون العرب عين التحولات التي عاشتها السياسة السوفياتية . ويمكن تقسيم الفترة الزمنية (١٩٤٨ ـ ١٩٦٧) الى مرحلتين كبريين : الأولى تبدأ سنة ١٩٤٨ وتنتهي سنة ١٩٥٤ ، والثانية تبدأ سنة ١٩٥٥ وتنتهي سنة ١٩٦٧ . وتختلف كل من هاتين المرحلتين بشعاراتها ومواقفها .

أ ــ المرحلة الأولى : (١٩٤٧ ـ ١٩٥٤)

تبدأ هـــذه المرحلة في اللحظة التي أعلن مندوب الاتحاد السوفياتي موقفه من التقسيم . فقد احدث اعلان الموقف السوفياتي انقلاباً في موقف الاحزاب الشيوعية العربية . وبعد أن كانت تندد بالصهيونية وتشجب التقسيم ، أصبحت تعلن رسمياً أنهـــا تؤيد التقسم ، واعتبرت تدخل الجيوش العربية عدواناً ، وطالبت بسحبها .

وقد بدأ نشاط الشيوعيين العرب لتأييد التقسيم وقيام دولة يهودية في شهر كانون الأول سنة ١٩٤٧ ، أي بعــــد أن أصدرت هيئة الأمم المتحدة قرار التقسيم بوقت قليل . فقد نظم الحزب الشيوعي العراقي مظاهرات في شهر كانون الأول ١٩٤٧ تأييداً لقرار التقسيم ، ولقيـــام دولة يهودية في فلسطين . وكان يتصدر هذه المظاهرات يهودي وعربي ، وقــد تصالبت ايديهما دليلاً على « الصداقة والمحبة » بين العرب واليهود [٥٥] .

وعاد الحزب الشيوعي العراقي ، بعد قيام دولة العصابات ، فنظم مظاهرات انحصرت مطالبها في الاعتراف بدولة «اسرائيل» ، وسحب الجيوش العربية وتسريحها [٥٦] .

وكان الخامس عشر من أيار موعد جلاء بريطانية عن فلسطين ، ودخول الجيوش العربية . وكان الخطر الصهيوني يزداد ، بعد ان اتضحت المؤامرة الدولية ، وسقط عدد من المدن العربيـة الهامة بأيدي العصابات الصهيونية . وما برح الحزب الشيوعي في سورية ولبنان أن عقـــد اجتماعاً في بيروت ناقش فيه المسألة الفلسطينية . وقد صدر عن الاجتماع بيان يصم الحرب بأنهـــا دينية عنصرية ، ويطالب بانسحاب الجيوش العربية .

---

٥٥ ـ لاكور ، الشيوعية والقومية في الشرق الاوسط ، ص ٣١٣ .

٥٦ ـ المرجع السابق ، ص ٣١٥ .

وأصدر الحزب الشيوعي العراقي ، في هـــذه الفترة نشرة داخلية بعنوان « توجيهـات بشأن الحرب الفلسطينية القذرة » نصت على ضرورة تعاون الديمقراطي العربي والديمقراطي اليهودي في « شجب الحرب الفلسطينية القذرة » ومنعها .

وأسرع الشيوعيون في سوريا ولبنان فأصدروا بياناً آخر في تموز بعنوان : « الى الاتحاد في جبهة وطنية جبارة » . جاء فيها : « لقد ثبت بشكل لا يقبل الجدل ما قاله الشيوعيون العرب من أن الحرب الفلسطينيـة كانت مؤامرة مدبرة بـــين الانجليز وخادمهم الملك عبد الله والزعمـاء الصهيونيين ، مؤامرة فظيعة هائلة هدفها أولاً : منع قيام الدولة العربيـــة المستقلة في القسم العربي من فلسطين ، والحاق هذا القسم بمستعمرة شرق الاردن البريطانية ... » .

ويضيف البيان : « ان الشيوعيين السوريين واللبنانيين وعدداً عديداً من الوطنيين الصادقين والديمقراطيين المخلصين ، قد حذروا من هذه الاخطار الكامنة وراء المغامرة العسكرية في فلسطين ، وبينوا أن قضية فلسطين هي قضية نضال ضد الاستعمار البريطاني والامريكي ... » ويطالب البيان « بالاتحـــاد في سبيل سحب الجيوش من فلسطين .. » (٥٧) .

---

٥٧ ـ المرجع السابق ص (٣١٥ ـ ٣١٦) .

ولم يتأخر الشيوعيون في مصر عن رفاقهم في سورية والعراق، فأعلنت « الوعي » نشرة « الحزب الشيوعي المصري » موقفها في ٢٠ كانون الأول ١٩٤٧ . إن « الوعي » ترى أن « أمة جديدة » قد ولدت ، وأن هذه الأمة يجب أن يعترف لها « بحق تقرير المصير » وبالتالي « حق الانفصال » .

وكان موقف بقايا « عصبة التحرر الوطني » في قطاع غزة لا يختلف عن موقف الحركة الشيوعية العربية : « النضال الواعي لتنفيذ (قرار التقسيم) وتحرير القسم العربي من جيوش فاروق وعبد الله وبن غوريون ، واقامة الدولة الديمقراطية المستقلة فيه، المتحدة اقتصادياً مع اسرائيل والصديقة للشعب اليهودي » .

ظلت الاحزاب الشيوعية ترفع مثل هذه الشعارات ، وتفسر الاحداث من خلال اعتبار اليهود أمة معتدى عليها ، وشعباً يناضل ضد الاستعمار والصهيونية الخ ... واخذت شعار الصلح مع اسرائيل بعد سنة ١٩٥٠ يحتل المكان الأول .

ب – المرحلة الثانية (١٩٥٥ – ١٩٦٧) .

بعد تبدل الموقف السوفياتي أخذت الاحزاب الشيوعية العربية تبدل مواقفها ، فسارع خالد بكداش في السادس من تشرين الأول سنة ١٩٥٥ الى الهجوم على الصهيونية بعنف ، خلال خطاب ألقاه في البرلمان السوري ، ونفى أن تكون

لليهود أو تتوفر فيهم مقومات الأمة [٥٨] .

وفي اجتماع موحد للجنتين المركزيتين للحزبين الشيوعيين في سورية ولبنان ، بتاريخ السابع من أيار سنة ١٩٥٦ ، اتخذت قرارات صدرت بعنوان « نحو آفاق جديدة » جاء فيها : « إن فكرة ايجاد « الوطن القومي » اليهودي بفلسطين ، الذي تحول فيما بعد الى « دولة اسرائيل » ، كانت من اساسها فكرة استعمارية عدوانية مجافية للعدالة ، ومنطوية على مؤامرة سافرة ضد شعب آمن لا ذنب له» [٥٩] .

وتضيف المقررات : « وهكذا قامت اسرائيل من اساسها على العدوان والاغتصاب ،وبقوة حراب الاستعمار ... » .

وتشير الى ان اسرائيل أثبتت : « منذ وجودها ، أنها ركيزة للاستعمار في قلب الشرق العربي ، فهي يد استعمارية في قفاز صهيوني ، كما وصفها احد الوطنيين العرب ، يستعملها الاستعمار أداة ضغط وعدوان وتهديد لكبح الحركة الوطنية في الشرق العربي ، ولمحاولة ارغام البلدان العربية على الانضمام الى الأحلاف العسكرية الاستعمارية كحلف بغداد » .

---

٥٨ ـ خطاب خالد بكداش في البرلمان السوري .

٥٩ ـ الحزب الشيوعي ، نحو آفاق جديدة ، ص ٢٦ .

« ... ويمضي الاستعمار الامريكي الانجليزي في مساعيه لجعل اسرائيل مركزاً عسكرياً وصناعياً قومياً لتثبيت مواقعه المزعزعة في الشرق العربي ، وللاستمرار في نهب ثرواته البترولية ، ولبسط سيطرته السياسية والعسكرية على الشرق الاوسط ولاكتساح اسواق البلدان العربية ، وتهديم اقتصادها ، ومنعها من تحقيق ما تنشده من تقدم وازدهار » .

ولكن ما الحل ؟

تجيب المقررات : « إن الملابسات التي تكتنف قضية فلسطين بتشابكها مع مطامع المستعمرين وأهدافهم العسكرية والسياسية والاقتصادية في كل الشرق العربي ، تجعل الوصول إلى حل عادل نهائي لهذه القضية ، أمراً معقداً ، يتطلب من العرب يقظة دائمة وتنبهاً شديداً إزاء مؤامرات الاستعمار والصهيونية » .

ومع أن « الحل العادل النهائي » غامض ، وغير محدد فإنه يعني بالطبع التنازل عن الشعار الرئيسي في القضية الفلسطينية ، ألا وهو : إسقاط دولة اسرائيل وانهاء كيانها ، والاعتراف للحركة الصهيونية بحقوق في فلسطين ، فالمقررات تريد حلولاً : « لقضية فلسطين تتفق مع مبادىء الديمقراطية والعدالة وتضمن حقوق العرب » .

وعلى الرغم من أن ما ذكرناه كان الموقف الرسمي للاحزاب

الشيوعية ، فقد علمت مثلاً ان فؤاد نصار الأمين العام للحزب الشيوعي الاردني حاول مقاومة هذا الاتجاه ، وارسل تعليماته من السجن سنة ١٩٥٥ الى سكرتير اللجنة المركزية كي لا ينجرف الحزب مع هذا الاتجاه .

وعندما احتلت القوات الصهيونية غزة سنة ١٩٥٦ ، رفض الشيوعيون في القطاع أن يشتركوا في حركة المقاومة السرية ، ورفعوا شعار : الغاء الاحكام العرفية ، وزيادة الاجور [٦٠] .

ولم يحدث اي تغير على مواقف الاحزاب الشيوعية الجديدة التي اعلنت سنة ١٩٥٥ ، ولكن عدداً من الأدلة يكشف ان هذه الاحزاب ما زالت مبدئياً تعتقد بصحة موقفها الذي اتخذته في السنوات (١٩٤٧ — ١٩٥٤) . ومن هذه الأدلة النشرة السرية التي اصدرها الشيوعي الاردني سنة ١٩٦٤ ، والتي أشار فيها الى صحة موقفه السابق من قضية فلسطين . وقد صدرت هذه النشرة بعد البرقيتين اللتين ارسلهما خروشيف رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي الى عبد الناصر ورئيس جمهورية دولة العصابات الصهيونية ، بمناسبة رأس السنة الجديدة ، لحل قضية مشاكل الحدود بالطرق السلمية ؛ وكان خروشوف قد ارسل مثل هذه البرقيات الى عدد كبير من رؤساء الدول في العالم .

٦٠ـ دروزة، الحكم: الشيوعية المحلية ومعركة العرب القوميةص٣٨١.

ويبدو أن بعض الشيوعيين قد ظنوا بأن الاتحاد السوفياتي قد عزم على المبادرة الى الدعوة لتحقيق سلم بين العرب و«اسرائيل»، فآثروا ان يكونوا السباقين .

وترفع الاحزاب الشيوعية الآن ، في ميدان القضية الفلسطينية ، شعار : الحقوق المشروعة لعرب فلسطين . وهو شعار غامض ، كما يعترف كثير من الشيوعيين ، ولكنه ـ على ما يبدو ـ رفع تحاشياً لرفع شعار حاسم . وتعتقد بعض الاوساط الشيوعة القائدة ، بأن رفع شعار حاسم مثل القضاء على دولة العصابات الصهيونية ، من شأنه أن يفقد العرب تأييد كل الاحزاب الديمقراطية في الخارج . وتتحاشى هذه الاوساط إمكانية صدام بين العرب واسرائيل ، وتبرر عدم رفع شعار حاسم بالخوف من مثل هذا الصدام ؛ وترى أن تقدم حركة التحرر العربي وانتصارها بترسخ الاوضاع التقدمية في مصر وسورية كفيل بأن يخنق اسرائيل دون حرب . وتؤكد هذه الاوساط بأن « اسرائيل » ليست أمة ، وأن تناقضاتها كفيلة بالقضاء عليها .

ونستطيع بأن نقول : إن موقف الشيوعيين العرب من قضية فلسطين يحدده عاملان :

الاول : الموقف السوفياتي من قضية فلسطين. وما دام الموقف السوفياتي يتجه نحو حل سلمي ، أي نحو حل لمصلحة الحركة الصهيونية ، فإن الشيوعيين العرب بأوضاعهم الحالية لن يسيروا في غير هذا الاتجاه. وقد ناقشت احد الاصدقاء الشيوعيين في موقف الاتحاد السوفياتي من قضية فلسطين ، فأكد لي أن الاتحاد السوفياتي هو الدولة الوحيدة المؤيدة لحق العرب في فلسطين ، إلا أنه لا يعلن موقفه بسبب حراجة الموقف الدولي .

ويدل موقف صديقي على انه حريص على رفع الشبهة عن الموقف السوفياتي اكثر مما هو حريص على مطالبته باتخاذ موقف حاسم وواضح ، على الرغم من حراجة الظروف الدولية ، لا أن نبرر الموقف الغامض الذي اتخذه. ولكن كيف يمكن أن نطالب اصدقاءنا الشيوعيين بمثل هذا ، وهم لم يتخذوا – حتى الآن – موقفاً حاسماً وواضحاً ؟

إن تبدلات مواقف الشيوعيين العرب في السنوات (١٩٢٥–١٩٦٧) دلت على أن مواقفهم مربوطة بالموقف السوفياتي .

الثاني : الموقف المحلي من الحركة العربية . على الرغم من أن موقف الشيوعيين العرب من قضية فلسطين لم يتغير جذرياً بعد سنة ١٩٤٨ ، إلا أن التغيرات التي حدثت دلت على أن موقف الشيوعيين من قضية فلسطين « يتحسن » بمقدار ما يكون موقفهم من الحركة العربية سليماً . ففي سنة ١٩٣١ عندما حددوا موقفاً واضحاً من القضية العربية كان الموقف واضحاً وحاسماً من الصهيونية . وفي السنوات (١٩٤٨ - ١٩٥٤) عندما كان الشيوعيون يتهمون الحركة القومية العربية بالفاشية كان الموقف من دولة العصابات الصهيونية خاطئاً ، ويلخص بالدعوة للصلح والاعتراف بالاغتصاب الصهيوني. وعندما حدث التغير سنة ١٩٥٥ تحول موقف الاحزاب الشيوعية من الدعوة للصلح والاعتراف باسرائيل الى اعتبار اسرائيل مركزاً أمامياً للاستعمار ، ودولة قامت بالاغتصاب والقوة الخ ... إن صحة الموقف من القضية العربية عامة تتضمن دائماً موقفاً صحيحاً من قضية فلسطين والعكس صحيح . وبمقدار ما يكون الموقف من القضية العربية ثورياً يكون الموقف من قضية فلسطين ثورياً. ولكن موقف الشيوعيين العرب من القضية العربية مرهون بالموقف السوفياتي ، كما دلت كل

الوقائع الثابتة في تاريخ الاحزاب الشيوعية العربية[٦١].
ولهذا يكون العامل الأول هو الهام والأساسي .

فإذا علمنا طبيعة الاستراتيجية السوفياتية الآن، أدركنا خطأ موقف الشيوعية المحلية وخطره .

---

٦١ ـ مرقص ، الياس : تاريخ الاحزاب الشيوعية في الوطن العربي .

المَوقِف السَّليم مِنَ الصَّهيُونية وَالغزو

١ ـ اليهودي قديماً وحديثاً

يرى ماركس أننا يجب ألا نبحث عن سر اليهودي في دينه، بل علينا أن نبحث عن سر اليهودية في اليهودي الواقعي . صحيح أن سر اليهودية في اليهودي الواقعي ، ولكن ما اليهودية إن لم تكن ايديولوجية اليهودي الواقعي ؟

إن اليهودي لا بد له من المحافظة على دينه حتى يظل يهودياً، لأنه في الوقت الذي يهجر فيه هذا الدين يتحول الى آخر .. إلى مسيحي أو ماركسي او أي صنف من البشر. وتحوّله هذا يوصل ما بينه وبين الانسانية، ويفتح له مجالاً واسعاً للانطلاق والتقدم. ولكنه يقاوم مثل هذا التحول . لماذا ؟ لأن دينه الخاص يمنحه خصوصيته ، وبالتالي يبرر له أن يكون ما هو عليه : منغلقاً وتاجراً ومرابياً وحرفياً وجوالاً وصهيونياً .

إن إلهه أباح له أن يقتل ويغتصب ويحتال . وعندما جاء

اليهودي الأول من مصر هارباً وفاتحاً ، قال له إلهه المحارب العطش للدماء : « أعطيتكم أرضاً لم تتعبوا عليها ، ومدناً لم تبنوها وتسكنوا بها ، ومن كروم وزيتون لم تغرسوها تأكلون ». ولم ينس هذا الاله المحارب الجبار ان يذكره قائلاً : « ولكن اذا رجعتم ولصقتم ببقية هؤلاء الشعوب اولئك الباقين معكم ، وصاهرتموهم ودخلتم اليهم وهم اليكم ١٣٠– فاعلموا يقيناً أن الرب إلهكم لا يعود يطرد اولئك الشعوب من أمامكم ، فيكونوا لكم فخاً وشركاً وسوطاً على جوانبكم ، وشوكاً في أعينكم حتى تبيدوا عن تلك الأرض الصالحة التي أعطاكم إياها الرب إلهكم »[1] .

الرب هنا صارم وحاسم ، فلقد منح وحذر ، أعطى وقرر أن « يبيد جميع سكان الأرض من أمام » بنى اسرائيل ، شعبه المختار . أما الذين احتالوا على الله وشعبه المختار ، وظلوا فقد قال لهم يشوع : « ٢٣ – فالآن ملعونون انتم ، فلا ينقطع منكم العبيد ومحتطبو الحطب ومستقو الماء لبيت إلهي »[2] .

---

١ ـ الكتاب المقدس : يشوع ، الاصحاح ٢٣ (١٢ ، ١٣) و٢٤ « ١٣ » .

٢ ـ الكتاب المقدس : يشوع، الاصحاح ٩ « ٢٢،٢٣،٢٧ ».

هذا اليهودي الذي دخل فلسطين هارباً من اضطهاد الفراعنة قبل أكثر من الفي سنة ، فقتل من قتل واستعبد من استعبد ، يعود حفيده بالدين اليوم ، في ظروف جديدة ، ولأسباب عديدة هارباً أو مهرباً ، ليقتل من أهل الأرض من يقتل ، ويستعبد من بقي .

قرابة الفي سنة تمر ، فتحدث الانقلابات الاجتماعية ، وتتقدم البشرية خطوات الى الامام ، بينما يظل « اليهودي » كما هو .. ويظل إلهه كما هو .

وخلال الشتات اليهودي ، تهود أناس كثر من غير اليهود ، وكانت الديانة الجديدة لا تحوّل المؤمنين الجدد الى التوحيد كما يدعى ، بل كانت تجعلهم مؤمنين برب خاص ، هو ربهم دون جميع البشر ، وتجعلهم قبيلة منقبضة على ذاتها ، متنافرة مع من حولها .. إنها كانت تقودهم الى « الغيتو » .

وعندما أخذت أسوار « الغيتو » تتهدم وتتلاشى في كل مكان ، لا سيما في الشرق السوفياتي ، وفي الغرب الرأسمالي ، أخذ « اليهودي » الحريص على يهوديته ، المرتبط بها بأسباب ، يبحث عن « غيتو » اكبر .. فكانت دولة العصابات الصهيونية .

وما برحت الصهيونية تدعي بأنها تستهدف من قيام دولة اسرائيل توفير حياة طبيعية آمنة لليهود ، ولكن كيف يمكن أن توفر « اسرائيل » الامان لهم ، وهي تسلحهم وتضعهم أمام محيط عربي زاخر ، وتجعل القتل والعدوان والتوسع شريعة لهم .

إن وضع اليهودي في فلسطين أعسر من وضعه في الشتات . فعندما كان اليهودي في « الشتات » كان مخيراً بين ان يظل يهودياً أو يصبح مواطناً ، وهو في الحالتين يستطيع أن يعيش ويعمل الخ .. ولكنه في « إسرائيل » يقف أمام خيار عسير . إن عليه أن يَقتل أو يُقتل، وبما أنه محدود ومحصور وطارىء، ويستفز قوى اكبر منه كثيراً فانه ، بحمله السلاح ، يقود نفسه الى المذبحة .

ووضعه هذا الذي خلقه بنفسه ، يدفعه اكثر فأكثر الى الاعتماد على قوى خارجية كبرى. إن هذه القوى هي التي سهلت له مهمة الوصول الى فلسطين واغتصابها والاحتفاظ بها حتى الآن. إن إلهه اليوم ليس إله اسرائيل إياه ، انما هو الدولار . واعتماده على هذه القوى العدوانية الرجعية يجعله يقف نهائياً في صف « القوى السوداء » المتقهقرة من جهة ، ويقوده الى معاداة البعث العربي من جهة أخرى .

لهذا يعلن قادة اسرائيل دائماً بأنهم ضد كل تغيير في الوطن العربي . ولهذا يزداد الدعم الامريكي لاسرائيل كل يوم . فقوة هــذه الدولة الطارئة الغازية مرهونــة بتفكك وطننــا وضعفه .

ولقد اثبتت تجربة الدولة اليهودية ، من دخول بني اسرائيل الى فلسطين ، حتى سقوط القدس ، واندثار المملكة اليهودية أن دولة اليهود، على الرغم من سطوة إلهها وجبروته ،وحبه للبطش والدماء ، لا تستطيـع أن تعيش حين توجــد دولة كبرى في المنطقة . فعندما كانت دولة الفراعنة قوية كانت دولة اليهــود صنيعة لها . وعندما كانت أية دولة تقوى في العراق كانت دولة اليهود تصبح صنيعة لها. .وكثيراًما ضاعت دولة اليهود بين الولاء لهذه أو تلك من دول مصر والعراق .

أما اليوم فوضعها أكثر تعقيداً . فلقد نشأت هذه الدولة في ظل حراب الامبريالية العالمية ، وما زالت الامبريالية تتعهدها وترعاها . ولما كان مستقبل الامبريالية معروفاً ، فإن مستقبل هذه الدولة يبدو معروفاً ايضاً . وهي لن تجد اليوم ما وجدته في الماضي: دولة في العراق تدعمها ضد دولة في مصر ، أو عكس ذلك ؛ فليس في المنطقة من يجرؤ على دعمهــا ، حتى القوى

السوداء السائرة الى الزوال والاندثار ، بينما بدأت حركة جبارة لتحقيق وحدة القوى المعـادية للامبريالية وللصهيونية في هـذه المنطقة من العالم .

إن قوى جبارة تنهض وتتقدم

***

٢ ـ طبيعة الكيان الاسرائيلي

يمتاز المجتمع الصهيوني في فلسطين المحتلة بخصائص ثلاث :

الأولى : أنه مجتمع مصطنع . صنعته الصهيونية العالميـــة بالتـآمر مع الاستعمار البريطاني وفي ظل حرابه أولاً، ثم بحماية الامبريالية الامريكية ونفوذها ونقودها . والميزة الأولى لهذا المجتمع المصطنع ، انه يضم اشتاتاً من الناس، يتكلمون لغات مختلفة ، ولهم تقاليد وعادات مختلفة ، ولاعلاقة قومية بينهم. انهم اشتات من شعـــوب شتى يجمعهم دين واحد فقط . فلا يمكن اعتبار اليهودي الالماني واليهودي اليمني من قومية واحدة . وما يجمع اليهودي الروسي بالمواطن الروسي أكثر وأقوى مما يجمع اليهودي الروسي باليهودي الالمــاني . اليهودي الالماني الماني لولا دينه ، وهذا شأن اليهودي الروسي واليهودي الانجليزي واليهودي العربي .

وتبرز هذه الحقيقة على صعيدين :

١ ــ انثروبولوجي : فاليهود ليسوا أمة ولا حتى وحـــدة أثنولوجية . وهذا ما يؤكده كثيرون من الذين تصدوا للموضوع . وقد كتب مؤلفو كتاب نحن الاوروبيون : « أن اليهود لا يمكن ان يصنفوا لا كأمـــة ولا حتى كوحدة اثنولوجية ، بل هم بالاحرى مجموعة اجتماعية ــ دينية تحمل قدراً كبيراً من عنصر البحر المتوسـط والارمني وغيرهما كثير ، وتتفاوت كثيراً في الصفات الجسمية » ثم يضيف هؤلاء « ان اليهـود المحدثين ان لم يكونوا ارمينيين في الأعم الاغلب ، فإنهم بالتأكيـد يبدون من الصفات الارمينية اكثرمايبدون منالصفات السامية ، وان النمط الجنسي الذي يميزطائفة السامريين، وان كنا نلقاه بين اليهود المحدثين ، الا انه بالتـــأكيد نادر بينهم »[٣] .

وهذا يؤكد حقيقتين، الأولى : أن يهود اليوم ليسوا أحفاد يهود فلسطين قومياً، والثاني انهم اخلاط قومية . وقد لاحظ دالي Dalby « ان هنالك كل الأنـــواع

٣ ـ حمدان ، جمال : اليهود انثروبولوجيا ، دار الكاتب العربي القاهرة، الطبعة الاولى ص ٧٢ .

والألوان بين اليهود: البيض والسمر والسود »[٤] « فثمة اليهود السود في الحبشة وجنوب الصحراء الكبرى ، واليهود الملونون في الهند ، بل والصفر احيانـــاً في التركستان ، واخـيراً اليهود الشقر في أوروبا » [٥] .

٢ – قومي ثقافي : إذ ليس لليهود لغـــة واحدة أو عادات وتقاليد واحـــدة . فالعبرية ليست لغة في الشتات ، واليديشيـة ليست غير لغة قسم صغير منهم؛ وليس لهم بالتالي أدب مشترك. وعلى الرغم من ان بعض التقاليد ما زالت تلازمهم ، فإن هـذه التقاليد ليست اكثر من تقاليد شيعة دينية . وقد أخذت هذه التقاليد تذوب وتضمحل مع انهيار جدران الغيتـو ، واندماج اليهود – اجتماعياً وثقافياً مع الشعوب التي يعايشونها .

وانعكست هذه التناقضات في تكوين« اسرائيل »، فمـن اختلاف السحن الى اختلاف الثقافـــات ، ومن

---

٤ ـ حمدان ، جمال ، المرجع السابق ص ٧١ .

٥ ـ حمدان ، جمال ، المرجع السابق ص ٧١.
ويراجع بهذا الشأن كتاب :

L. Abrahm, The Jewish Question : A Marxist Interpretation. Ediciones Pioneras - Mexico, D.F 1950 P. (203 - 206)

اختلاف اللغات إلى اختلاف التقاليد . هذه التناقضات التي لاحظها مفكرون يهود مثل فريدمان ؛ واشاروا اليها [٦] .

الثانية : أنه مجتمع عدواني : فلقد قام هذا المجتمع بالقوة ، ولا يستطيع ان يستغني عن القوة في المحافظة على وجوده. فاليهود الذين تجمعوا في فلسطين منذ اوائل القرن التاسع عشر حتى سنة ١٩١٨ ، لم يزيدوا عن أقلية ضئيلة جداً بالقياس الى عدد سكان البلاد العربية ، ذلك أنه لم يكن هنالك كيان سياسي اسمه فلسطين ، قبل الانتداب البريطاني. ولم يبلغ هؤلاء اليهود الذين منحتهم بريطانيا وعداً باقامة وطن قومي لهم عشرة بالمائة من سكان هذا الجزء من البلاد العربية الذي اقتطع، وخططت حدوده بعد الاحتلال البريطاني ، لكي تقوم فيه دولة صهيون . ومنذ سنة ١٩١٨ ، وحتى سنة ١٩٤٧ ، وعلى الرغم من نشاط الصهيونية العالمية وتآمر الاستعمار البريطاني والامبريالية الامريكية ، لم تزد نسبة الذين أدخلوا إلى فلسطين من اليهود ، رغم مقاومة أهلها ، عن ٣٠ ٪ من

---

٦ ـ خليل احمد خليل : فريدمان ومصير اليهود ، دراسات عربية السنة ٣ ، العدد ٨ ، ص ٢٣ .

سكانها . ولم يستطع هؤلاء رغم كل الأســاليب التي استخدموهـا ، تخطط لهم الصهيونية العالمية وتحفزهم وتمولهم ، ورغم كل الأساليب الماكرة التي استخدمتها السلطة البريطانية ، ان يملكوا أكثر من ٦ ٪ من أرض فلسطين .

ولكن مؤامرة التقسيم سنة ١٩٤٧ ، والدعـم الامبريالي هيئا لهذه الفئة القليلة الوافدة التي تملك القليل، ان تبسط سلطانها سنة ١٩٤٨ و سنة ١٩٤٩ على حوالي ٨٠ ٪ من ارض فلسطين ، وتطرد حوالي مليون من سكانها ، وتستولي على أملاكهم .

ومنذ قيام هذه الدولة، وهي تؤكد على ألسنة قادتها انها لا بد لها من ان تتوسع ، وإلا فإنها سوف تختنق . وبالاضافة الى أن الرقعة التي احتلتهـا سنة ١٩٤٨ لا تكفي لسد حاجات سكانها ، فإنها لا تتسع لملايـين اليهود الذين تفكر الصهيونية العالمية بحشدهم في فلسطين. ولهذا فإن دولة العصابات لم تكتف بمصادرة أراضي العرب الذين طردتهم من بيوتهم، بل عملت بكل وسيلة على تجريد الذين ظلوا من املاكهم . وقد سنت القوانين اللازمة لذلك .

وبالاضافة الى ذلك ، فإن دولة العصابات لم تتورع

عن ان تغتصب مياه نهر الاردن وتعلن عن مطامعها في مياه نهر الليطاني .

وجاء عدوان الخامس من حزيران ، واحتلال أراض جديدة دليلاً جديداً على العدوانية والاتجاه نحو التوسع . وهو ما تؤكده خطابات القادة الصهيونيين وتصريحاتهم . يروى عن أشكول انه قال في خطاب له بنيويورك حين زارها في اوائل هذا العام :« لقد توسعنا وسنتوسع ».وهذه هي حقيقة الاستراتيجية الصهيونية .

لقد قام الكيان الصهيوني بالعدوان ، ولن يستطيع ان يتطور وان ينمو إلا بالعدوان . وهذا يقتضي ان يظل المجتمع الاسرائيلي مجتمعاً عسكرياً متماسكاً ، وان يظل المجتمع العربي مجتمعاً منحلاً مفككاً .

وتدل آخر الدراسات على ان نسبة العسكريين إلى المدنيين في اسرائيل هي أعلى نسبة في العالم ، وهي تبلغ واحداً وعشرين ضعفاً من مثيلتها في الوطن العربي . هذا من حيث العدد وليس من حيث الكيف .

ويفرض هذا الوضع ان تقوم استراتيجيتها السياسية والعسكرية على ثلاث دعائم : القوة، الردع، التدمير . القوة ما تعتبره ضمان البقاء ، إنه الوسيلة للمحافظة على

الوجود . وتتمثل هذه القوة في ناحيتين الأولى : التعبئة العسكرية الكاملة للمجتمع . والثانيـة : امتلاك أكثر الأسلحة تدميراً وأقدرها على تحقيق الهدف. والردع — لمواجهة القوى العربية النامية ، قبل ان تصبح قادرة على الهجوم . الردع هنا هجومي وليس دفاعيـاً . إنه يستهدف استدراج الخصم لخوض معركة خاسرة .ولعل معركة سيناء سنة ١٩٥٦ وحرب السويس سنة ١٩٦٧ خير مثلين على نموذج الردع الاسرائيلي . أما التدمير فيستهدف تحقيق الهدف الاساسي لهذه الاستراتيجية ، وهو القضاء على قوى الخصم — تدمير اسلحته وقتـل شبابه وتهجيره من المناطق الاستراتيجية .

الثالثة : إن إسرائيل كيان مرتبط بالامبريالية العالمية ارتباط مصلحة ومصير. ذلك أن دولة العصابات الصهيونية التي نشأت بتدبير من الامبريالية لا تستطيع ان تبقى وتتطور إلا بدعم الامبريالية ومساعدتها. ويحدد هذه العلاقة بين اسرائيل والامبريالية عاملان :

الأول : ان الامبريالية في عصر يقظة الشعوب ، وانفجـار ثورات التحرر الوطني ،وفي عصر الانتقال الى الاشتراكية ، أصبحت بحاجة الى قـــوى محلية رادعة تتراوح بين الحكومات الرجعية العميـلة وبين القوى الأجنبيـــة

الاستعمارية . وتمثل اسرائيــل نموذجاً مثالياً للقوة الاستعمارية الاجنبية الرادعة المدمرة . وإذا عرفنا أهمية الشرق الأوسط الاستراتيجية والاقتصــادية ، بالنسبة للامبريالية العالمية ، عرفنا أهمية الدور الذي تلعبــه اسرائيل .

الثاني : أن اسرائيل كيان صغير جغرافيــاً وبشرياً وسط مجتمع عربي كبير زاخر بالقوى البشرية والاقتصادية . وبينما تظل امكانيات نمو اسرائيل بشريا وماديــاً محدودة تظل الامكانيات العربيــة غير محدودة . و « اسرائيل » التي تعرف هذه الحقيقة حق المعرفــة قررت ان تضع نفسها في خدمــة قوة كبرى . ولقد اختارت الآن الولايات المتحدة الاميركية لـكي تكون مركزاً امامياً من مراكزها .

ودور اسرائيل الآن ينحصر فيما يلي :

١ — إبقاء الوطن العربي مجزأ ؛ والعمل على زيادة تجزئتــه بإثارة النعرات الطائفية .

٢ — المحافظة على الاوضاع المتخلفة فيه ، بتأييد الرجعيــة ضد الحركة الوطنية . فاسرائيل مع حسين ضد الحركة

الوطنية في الاردن ، ومع الامام البدر ضد الجمهوريين ، ومع فيصل ضد عبد الناصر الخ .. ومواقفها واضحة في هذه المجالات .

٣ – ضرب القوى النامية بالحملات العسكرية أو التخريب أو كليهما .

إن هذه الحقائق ليست أسراراً . وهنالك مصادر علنية تبينها وتكشفها . وأول هذه المراجع تصريحات القادة الاسرائيليين أنفسهم . أما ثاني هذه المصادر فهو تاريخ الحركة الصهيونية ، منذ المؤتمر الصهيوني الاول سنة ١٨٩٧ حتى اليوم . فمن محاولة الارتباط بالسلطان العثماني عبد الحميد الى الارتباط بالاستعمار البريطاني ، ثم الامبريالية الاميركية . ومن استعمال أساليب مضللة لاستعمار فلسطين ، إلى القيام بحملات عسكرية سنة ١٩٤٨وسنة ١٩٥٦ وسنة١٩٦٧؛ غير منفصلة عن حملات الامبريالية العالمية للسيطرة على العالم . فلقد رافق هجوم سنة ١٩٥٦اتجاه حركة التحرر العربية نحو الوحدة والاستقلال وتصفية المصالح الأجنبية ؛ وكان من أبرز ما مثل هذا الاتجاه عملياً : تصاعد دور الجماهير الشعبية على مستوى الوطن العربي، وبروز شعار الوحدة العربية ، وتأميم قناة السويس ،

وكسر طوق الحصار المضروب على التسلح العربي وشراء أسلحة من الكتلة الشرقية . ورافق هجوم ١٩٦٧ : انحسار قوى الحركات الوطنية على صعيد العالم الثالث (سقوط حكم نكروما وسوكارنو) ، واستشراس الامبريالية الاميركية في كل انحاء العالم ، وبروز حركة التحرير الوطني الفلسطيني حركة مسلحة تؤمن بالعمل المسلح طريقاً للتحرير . ونجد ثالث هذه المصادر في تراث الماركسيين عامة واليهود منهم خاصة . ولن نعود إلى تروتسكي ولينين فقد بيّنا مواقفهما ، كما أنا بينا موقف هايمن ليفي . وإذا كان ابراهيم ليون* معادياً للصهيونية ، فإن ليفي مؤيداً لها ، وهو مع ذلك يعترف بارتباط اسرائيل اقتصادياً وسياسياً بالولايات المتحدة . وسأقدم هنا آراء بعض المنظمات الاسرائيلية في هذا الموضوع .

لنبدأ أولاً ، بحزب المابام ، وهو حزب اسرائيلي كبير ، يدعي بأنه حزب ماركسي واشتراكي وان كان حزباً صهيونياً كما سنرى : يقول رئيس هذا الحزب ماير ياري : « ولقد عبرت مراراً — هنا في اسرائيل أو خلال مقابلات عالمية — عن تحفظات المابام بصدد **ارتباطنا المفرط بالغرب** ، وكنت دائماً أدعو الى اتباع سياسة

---

* كاتب ماركسي تروتسكاوي ، مؤلف كتاب هام عن « المسألة اليهودية » أشرنا اليه سابقاً .

حيادية » [٧] . أما الحزب الشيوعي الاسرائيلي ، فانه يرى ان « دولته أداة بيد القـوى الاستعمارية » [٨] . ويقول سميحا فلابان ، من حزب المابام بأن اسرائيل « ارتمت في احضان القوى الامبريالية الملتحمة في صراع مع حركات التحرر الوطني العربي » وانها « انضمت الى المعسكر الامريكي .. » [٩] .

وإسرائيل هذه أداة في يد الامبريالية ، لا على نطاق الوطن العربي فحسب ، بل على نطاق آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية . ودورها على هذا الصعيد يتمثـل بالقيام بـدور الوساطة وتنفيذ المشـاريع لمصلحة الاحتكارات [١٠] .

---

٧ ــ مجموعة من الكتـاب الاسرائيليين ، من الفكر الصهيوني المعاصر ، مركز الابحاث ،منظمة التحرير ـ بيروت ١٩٦٧ ، ص ٢٩٢ .

٨ ــ المرجع السابق ص ٣١٢ .

٩ ــ المرجع السابق ص ٢٧٦ .

١٠ ــ بن بركة ، المهدي « الاختيار الثوري في المغرب »، دار الطليعة، بيروت ، ص ٩٣ .

٣ ـ موضوع اليسار في إسرائيل

هنالك قضيتان في هذا المجال لا بد من التصدي لهما :

أولهما : معنى اليسارية ومضمونها ، وثانيهما : واقع اليسار في اسرائيل .

أولاً : معنى اليسارية ، يعني اليسار اختيار خط التحرر والثورة ، خط العمال والكادحين والمضطهدين طبقياً وقومياً ، إنه خط الكفاح الوطني ضد الاستعمار الخارجي وخط الكفاح الطبقي ضد الطبقات المستغلة . وتنطلق الماركسية في ميدان التحرر الوطني من مسلمة واضحة : « إن شعباً يضطهد غيره من الشعوب لا يكون حراً » . فماذا يكون وضع إسرائيل إذا طبقنا هذا المقياس عليها ؟ إسرائيل لم تضطهد بل استأصلت ، ولم تستعمر بل استبدلت ! إنه واضح هنا ان « المستعمر » لا

يستطيع أن يكون يسارياً ، حتى ولو كان عاملاً أو فلاحاً . وإسرائيل فوق هذا ليست جماعات متفرقة من المعمرين إنها دولة استعمارية ، واقع استعماري [11]. فكيف يمكن أن ينبثق يسار من قلب هذا الواقع الاستعماري ؟

إن اليساري هو الذي يناضل من أجل تحرر أمة أو طبقة من الاستعمار أو الاضطهاد والاستغلال . والوضع في فلسطين جعل اليهودي ،كل يهودي ، مستعمِراً ومضطهِداً ومستغِلاً ، لأن البيت الذي يسكنه هو بيت إنسان غيره ، ولأن الأرض التي يفلحها أرض إنسان آخر ... ولأن الإنسان المطرود من بيته وأرضه ما زال يقف على بعد أميال منفياً مشرداً جائعاً . فإذا أراد اليهودي أن يكون يسارياً وجب عليه أن يثور ضد احتلاله واستعماره واضطهاده واستغلاله ، أي ضد نفسه. فهل يستطيع أن يفعل ذلك ؟ هذا هو الإشكال . لأنه إما أن يفعل هذا فيكون يسارياً حقاً أو يحمل السلاح ويقاتل أصحاب الأرض والحق فيكون بذلك مستعمراً مضطهداً ...

ولقد سجل تاريخ الهجرة إلى فلسطين وقائع تستحق الانتباه هنا . ذلك أن بعض الشيوعيين اليهود الذين وفدوا إلى فلسطين، بعد سنة ١٩٢٠ حلوا هذا التناقض بالهجرة منها ... ولقد قام

---

١١ ـ رودنسون، مكسيم: إسرائيل واقع استعماري، وزارة الثقافة، دمشق.

بعضهم بتوزيع المناشير على المهاجرين القادمين ، قائلين لهم : « عودوا من حيث جئتم ، فهذه أرض العرب »[١٢] . فعلوا ذلك لأنهم كانوا مخيرين بين أن يكونوا يساريين أو استعماريين، فاختاروا أن يكونوا من اليسار .

وان يكون الانسان يسارياً في « إسرائيل » معناه أن يكون ضد دولة إسرائيل ، ضد الهجرة اليهودية، ضد استئصال شعب فلسطين ؛ فمن الذي يستطيع أن يكون كذلك؟

ثانياً : واقع اليسار في إسرائيل . إن أحزاب إسرائيل جميعاً ، بما فيها ما يسمى « الحزب الشيوعي الإسرائيلي » متفقة على اعتبار وجود الدولة الصهيونية أمراً لا جدال فيه ؛ وان كانت تختلف في أمرين : أولهما : وجودها ضمن أية حدود ، وثانيهما : وضع العرب ضمن هذه الحدود وعلاقة هذه الدولة بالجيران العرب وبالعالم .

وتصر كل الأحزاب ، بما فيه الحزب الشيوعي الإسرائيلي ، على اعتبار حدود ما قبل الخامس من حزيران حدوداً لا يمكن التراجع عنها؛ وإن كان معظم هذه الأحزاب لا يرى أنها حدود

---

12 - L .Walter: Nationalism and Communism in The Middle East .

نهائية ، بل يرى أنـه لا بد من التوسع . ولا نريـد هنا أن نتحدث عن أحزاب اليمين ، الدينية وغير الدينية ، بل نريـد أن نتحدث عن الاحزاب التي تسمى أحـزاب اليسار ، وهي المابای والمابام والحزب الشيوعي الإسرائيـلي وحركة القوى الجديدة ، حديثاً موجزاً جداً

١ـ الماباي :

● نشأ هـذا الحزب سنة ١٩٣٠ ، نتيجة انـدماج حزبي العامل الفتى (هابوئيل هاتسعير) وحـزب العمل الموحـد (احدوت ها عفودا) وكان أولهما لا يؤمن بالماركسية ، بينما كان الثاني يعتبر نفسه ماركسياً .

● تقوم ايديولوجية هذا الحزب على ضرورة حشد اليهود في فلسطين وإقامة دولة يهودية ، تشمل أجـزاء واسعة مـن المنطقة العربية تتجاوز حدود فلسطين التي رسمها الانتـداب .

● قاد هذا الحزب النشاطات الصهيونية منذ سنة ١٩٣٣، حين سيطر على الوكالة اليهودية ، وأنشأ الهستدروت (اتحـاد العمال اليهود) والهاجاناه (جيش الدفاع الإسرائيلي) وقـاد معركة سنة ١٩٤٧ ـ ١٩٤٩ التي أدت إلى تهجير العرب وقيـام دولة إسرائيل .

● ظل العمود الفقري للسلطة في إسرائيل ، منذ ذلـك

الحين ، وقاد كل الاعتداءات التي حدثت ، بما فيها عدوان سنة ١٩٥٦ وعدوان سنة ١٩٦٧ .

● ليس لديه برنامج اشتراكي .

● تقوم سياسته الخارجية على أساس التحالف مع الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة ، وعلى أساس متابعة سياسة العدوان والتوسع والسعي لفرض الاعتراف بالوضع القائم على العرب [١٣] .

٢ ـ المابام :

● حزب يدعي بأنه ماركسي لينيني .

● يعتبر الحزب الثاني في إسرائيل من حيث القوة .

● يطرح شعارات الكفاح الطبقي والحياد ويطالب بالمساواة في الحقوق للعرب، ولكنه يلح في الوقت ذاته على تقوية أجهزة إسرائيل الدفاعية (أي الهجومية العدوانية) لكي تكون قادرة على مواجهة أي هجوم عربي ، وللانتقام من

---

١٣ ـ العابد ، ابراهيم : المابام . مركز الابحاث ، منظمة التحرير .

هجمات الحدود . وترفع جريدته اليومية الهامشمار (الحارس) شعار : « نحو الصهيونية والاشتراكية والصداقة بين الأمم ».

● كان المابام مشتركاً بوزارة بن غوريون التي خططت للهجوم على السويس سنة ١٩٥٦ ، وحين أجبر بن غوريون على قبول الانسحاب من سيناء وغزة نظم حزب المابام مظاهرات ضد الانسحاب .

● يختلف هذا الحزب مع الماباي حول الشعارات ،ولكنه ليس إلا ظلاً له عملياً .

● يلعب دوراً هاماً في الباس الصهيونية لبوساً اشتراكياً، على النطاق العالمي ،ويقوم بدعاية واسعة في الأوساط الاشتراكية لمصلحة إسرائيل والصهيونية . ويصدر مجلة مكرسة لهذا الغرض تدعى (نيو اوت لوك) [١٤] .

٣ ـ الحزب الشيوعي الإسرائيلي:

● حزب ضعيف له نائبان في البرلمان ، وقد باتت أكثرية قواعده من العرب ، بعد الانشقاق الذي حدث في صفوفه سنة ١٩٦٥ ، وانفصال قسم كبير من العناصر اليهودية التي أسست حزباً شيوعياً آخر .

---

١٤ ـ مجاعص، لمياء جميل: المابام . مركز الابحاث ، منظمة التحرير.

● يتبنى الماركسية اللينينية نظرياً ، ويتبنى النهج السوفياتي في المناظرة العالمية الدائرة بين الشيوعيين .

● كان يطالب بتنفيذ قرارات التقسيم لسنة ١٩٤٧ ، ولكن رئيسه نشر دراسة بعد حرب حزيران سنة ١٩٦٧ في مجلة « الأزمنة الحديثة » ، دعا فيها إلى تحويل حدود هدنة ما قبل الخامس من حزيران، إلى حدود ثابتة [١٥] .

● يطالب الحزب بتحسين أحوال العرب الذين ظلوا تحت الاحتلال الإسرائيلي ، ويشجب اعتداءات إسرائيل المتكررة ، ويدعو للصلح وللاعتراف باسرائيل على أن تعترف إسرائيل بحقوق عرب فلسطين القومية ، دون أن يوضح كيف يمكن أن لا تقع مثل هذه الدعوة في التناقض .

٤ — بعض التجمعات الصغيرة الجديدة :

● أهم هذه التجمعات « حركة القوى الجديدة » بزعامة أوري افنيري .

● نشأت هذه الحركة سنة ١٩٦٥ .

● ترى هذه المجموعة أن يهود العالم لا يشكلون أمة .

---

١٥ ـ مجموعة من المفكرين الاسرائيليين: من الفكر الصهيوني المعاصر ، مركز الابحاث ص ٢١٤ ـ ٢١٥ .

- وتطالب بأن يفصل الدين عن الدولة .

- يجب أن يعقد صلح بين إسرائيل و«الأمة الفلسطينية».

- ترفض العودة إلى حدود التقسيم لسنة ١٩٤٧.

- تطالب بحقوق اللاجئين في العودة أو التعويض ، على أن تتم العودة حسب ترتيب تضعه إسرائيل « وفق العوامل الاقتصادية والعسكرية » .

وتكشف لنا دراسة هذه الأحزاب حقيقتين :

الأولى : ان ما يسمى باحزاب اليسار ،وعلى رأس القائمة حزبا الماباي والمابام ، ليس له علاقة باليسار،لا من حيث النظرية ولا من حيث الواقع .

الثانية : الحزب الشيوعي ، وهو حزب إصلاحي أكثرية قواعده من العرب ، يزداد ضعفاً في أوساط اليهود ، لأنه يتجرأ على طرح شعارات تشجب العدوان الإسرائيلي وتطالب بالمساواة للأقلية العربية .

ولكن إذا كان الأمر كذلك ألا يوجد هنالك أمل بتطور يسار حقيقي ؟
إن هذا السؤال يعيدنا إلى البدء لنطرح سؤالا آخر هو :هل

هنالك من هو مستعد أن يثور ضد نفسه . إنني أُعتقد انـــه لا بد من ان يكون هنالك ، ولكن إمكانية تحرك اليهود في إسرائيل ضـــد السياسة الصهيونية والوجود الصهيوني تزداد بمقدار ما يثبت المقاتلون العرب فشل الصهيونية عسكريـــاً وسياسياً .

٤ ـ موقف سليم من الغزو

إن الحركة الثوريـــة العربية مطالبة بتحديـد موقف من الصهيونية دون تردد ، فكيف يجب أن يكون هذا الموقف ؟

إن هذا الموقف يجب أن يكون: القضاء على دولة العصابات الصهيونية وإنهاء كيانها . وهذا هو الموقف السليم الوحيد .وان أي تردد اوخشية لايخدم السلام ، بل يخدم القوة والاغتصاب، ولا يصون الدم بل يؤدي إلى مزيد من إهراق الدماء . وإذا كان هذا العصر عصر الثورة على الإلحاق والاستعمار والاستغلال فمن باب اولى ان يكون عصر الثورة على ما هو أبشع من الالحاق والاستعمار والاستغلال ... ان يكون عصر ثورة على الاحلال والاستئصال .

إن الغزوة الصهيونية لفلسطين،التي تمت بتدبير من الامبريالية العالمية ، لا تختلف عن الغزوات البربرية التي عرفها التاريـخ ؛

وهي اشبه ما تكون بهجرات الشعوب البدائية ، واقرب مـا تكون في ابعادها ودلالاتها إلى الغزوة الصليبية . فما الفرق بين حشود الصهاينة التي جاءت فلسطين لتقيم مملكة « إسرائيل » ، وحشود النصارى الذين جاءوا ليقيموا دولة الصليب في البلاد المقدسة ؟

وهـــل يجوز أن يبرر الانتصار الأولي للغزو عملية الغزو ذاتهـا ؟

إن الذين يطالبون العرب بقبول دولة العصابات الصهيونية ، يتجاهلون انهم يشاركون في دعم اوسع وابشع غـــزوة بربرية عرفها التاريخ الحديث .

فإذا كان هؤلاء من المعسكر الامبريالي ربطنا بـين موقفهم ومصالحهم ، أمـا إذا كانوا من المعسكر الاشتراكي حـــرنا في الاستدلال على سبب لموقفهم . ولا يلبث أن يتضح لنا أنهـم في مثل هذا الموقف يغلـّبون المساومة على المبدأ ، ومنهم المحرف الذي يستخدم المبادىء لأغراض بعيدة عنها . فالماركسية اللينينية ضد الإلحاق ، وأكثر ماركسيي اليوم مع « الاحلال » . والماركسية اللينينية تعتبر مبدأ حق تقرير المصير من مبادئها في معالجـــة القضايا القومية ، ولكن مبدأ حق تقرير المصير ينكر على العرب ، وهم الشعب صاحب الحق بـــه ، بينما لا يُنكر على العصـابات الصهيونية الغازية . وماركسيو اليوم يتحدثون عـن القضاء على

نفوذ الامبريالية وقواعدهـــا العسكرية ، ولكنهم يتجاهلون أكبر « قاعدة عسكرية مأهولة » في العالم : دولة إسرائيل.

وإذا كان عهد الاستعمار قد انقضى ، وإذا كانت الامبريالية تسير نحو التلاشي والزوال ، وإذا كانت الشعوب مطالبة بإنهاء كل أشكال السيطرة الأجنبية ، فلمـــاذا يطلب من العرب دون شعوب الأرض أن يقبلوا قاعدة عسكرية كبيرة مـأهولة ، لا يمكن أن تعيش إلا بالتوسع والعدوان ؟

ولمـــاذا كافح الشيوعيون الفرنسيون والسوفيات الغـزو العسكري النازي ، ويكافح الفيتناميون اليوم الغزو الأمريكي إذا كانت مكافحة الغزو ليست واجباً وطنياً ؟ ! ..

إن الشيوعيين الفرنسيين ما زالوا يفتخرون بالدور البـاسل البطولي الذي لعبوه في مقاومـة الغزو الهتلري ، ولكن هؤلاء الرفـــاق أنفسهم يطالبوننا اليوم بمسالمة غـزو أبشع من الغزو الهتلري ، دون أن يسائلوا أنفسهم كيف يمكن أن يفعلوا ذلـك دون أن تحمر وجوههم خجلاً ...

أما الشيوعيون العرب ،فإن موقفهم أكثر مدعاة للاستغراب والدهشة . فلقـــد رفعوا شعار السلم بـــدل أن يرفعوا شعار

المقاومة . وبينما طالبوا العربي أن يدعم السوفياتي والألماني والانجليزي ضد النازي والفاشي ، طلبوا منه أن يتآخى مع الغازي الصهيوني أيضاً . وعندما انقض الغازي الصهيوني يحتل ويقتل ويدمر ، لم يرفعوا شعار الوقوف في وجهه ، بل رفعوا شعارمقاومة محاربته. وحين نشبت الحرب الكورية كان الشيوعي العربي يطلب من العربي أن يقاتل ضد المستعمر الامريكي في كورية ، ولكنه طلب منه أيضاً أن يدير خده الايسر للغاصب الصهيوني ..

وما زال الشيوعيون العرب يتهربون من اتخاذ موقف واضح حاسم. وهم – حتى عندما يعلنون شجبهم للصهيونية ،واعتبارهم لإسرائيل قاعدة عدوانية – لا يسمحون لأنفسهم باعلان النتيجة الحاسمة : القضاء على القاعدة العسكرية العدوانية . إنهم ما زالوا يميلون إلى التفريق بين الصهيوني واليهودي ، أي بين بن غوريون والعامل الصهيوني الذي يؤيده . ومع أن طبيعة تكوين الحزب الشيوعي الإسرائيلي تدل على ان يهود دولة العصابات ما زالوا على غير استعداد لأن يتحولوا عن صهيونيتهم ، فما زال الشيوعيون العرب يعتمدون هذا التمييز في موقفهم . ويبدو هذا واضحاً في الاشارة التي وردت عن « إسرائيل » في مقال اخير للأمين العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي الأردني فؤاد نصّار. إن فؤاد نصار في إشارته العابرة والموجزة جداً ، على عكس المقال (الإيجاز هنا مقصود لأن بحث الموضوع مفصلاً يقود إلى

الحرج) يذكر إسرائيل و كأنه يذكر البرتغال او إسبانيا او المانيا الغربية مثلاً .. ذلك انها « اصبحت » « تلعب دور المركز الامامي » « في الاستراتيجية الامبريالية الموجهة ضد » البلدان العربية ... وقد « حولها قادتها إلى خزين للأسلحة » ... « اصبحت » هذه تدل على انها لم تكن يوماً كذلك . وهي لم تكن كذلك في نظر فؤاد نصار منذ سنة ١٩٤٧ ، كما تدل مواقفه ومواقف الحزب الشيوعي الاردني ، وإذا كانت اصبحت ، كما اصبحت فرموزا ، خزيناً للأسلحة ، فما الذي يمنع ان تتحول عن هذه السياسة ما دام الامر يتعلق بقادتها فقط ؟ [١٦] .

ان الشيوعي العربي مطالب اليوم اكثر من اي وقت مضى ، ان يعلن بأعلى صوته بأنه ضد الغزو .. وانه يعمل لمحاربته والقضاء عليه ، والا فانه لن يكون عربياً ولا شيوعياً . نحن الآن في مرحلة مخاض المقاومة الحاسمة ، وهذ المقاومة لا تحتمل التردد والمساومة .

ربما كان الشيوعي العربي يخشى تهمة النازية والفاشية أن تلصق

---

١٦ ـ نصار، فؤاد: حركة التحرر الوطني في البلاد العربية، مجلة المبادىء عدد ٩ ، سبتمبر «أيلول» ١٩٦٦ ، ص «١٥» .

به ، كما الصقت بغيره ممن لم ينساقوا مع الموجة الصهيونية التي تحكمت بالاحزاب الشيوعية في الوطـــن العربي والغرب ، او انساقوا ولكنهم ارادوا أن يتحفظوا . وهو موقف في الواقع لا يحسد عليه . فبدلاً من ان يفضح الشيوعيين الصهيونيين الفــاشست اصبح يخشى هجماتهم ، حتى بات يدافع عما كــان يجب ان يقاومه .

والشيوعي العربي عندما يفعل ذلك : عندما يقاوم الصهيونية : دولة غازية في فلسطين ، واتجاهاً سياسياً رجعياً في الاحزاب الشيوعية ، فهو لا يقوم بواجبه الوطني فحسب ، انـــه يقوم ايضاً بواجبه في محاربـــة الامبريالية ، وارســـاء المضمون الصحيح الثوري للأمميـــة : مقاومـــة كل غزو وكل احلال وكل استعمار .

اننا نملك من الجرأة ما يجعلنـــا قادرين على ان نصيح بأعلى أصواتنا : نحن ضد الغزو ؛ ولسوف نفعـــل كل ما نستطيع لمقاومته وسحقه . لن نتردد لحظة واحدة في هذا الموضوع . وسنفضح المترددين والخائفين والمنحرفين . سنكون من الآن فصاعداً أشد وطأة عليهم من ماركس على لاسال ، ومن لينين على كاوتسكي والبوند . ونحن عندما نفعل ذلك لا نفعله من اجل مقاومة الشيوعية ، بل نفعله من أجل انتصار الثورة ؛ وانتصار الافكار الثورية الصحيحة ، والقيم الثورية الناصعة .

هذا هو موقفنا ، ولسوف يبقى هكذا ، حتى لو تحولت اسرائيل الصهيونية الرجعية الى بلد اشتراكي، مع ان هذا يبدو غريباً وبعيداً . إن موقفنا لن يتغير لأننا يجب ألا نتهاون مع الغزاة ، حتى ولو لبسوا لبوس الاشتراكية . ولا أدري ما هي الاشتراكية التي تسمح للصوص والقتلة والسماسرة والسائرين في ركابهم ببناء دولةعلى حساب آخرين . وإذا كنا مطالبين بشيء، فإننا مطالبون بالدفاع عن المشردين ، لا بالدفاع عن الغزاة .

خاتمة

أنجز هذا الكتاب قبل الخامس من حزيران سنة ١٩٦٧ . ولقد جاءت أحداث الخامس من حزيران لتطرح قضية الموقف الماركسي من اسرائيل والصهيونية مجدداً .

وبما أن هنالك مواقف مختلفة في الحركة الماركسية العالمية ، فلا بد لنا من ان نتحدث عن كل فئة على انفراد ، حديثاً موجزاً .

أ ـ الاتحاد السوفياتي والأحزاب والدول المنسجمة معه ، ويركز هذا التحالف على ما يلي :

١ ـ حق اسرائيل في البقاء . وقد أكد كوسيجين ذلك في خطابه في الأمم المتحدة قائلاً : « وقد يسأل سائل لماذا يقف الاتحاد السوفياتي ضد اسرائيل بمثل هذا الحزم ؟ كلا أيها السادة لا يقف الاتحاد السوفياتي ضد إسرائيل ، بل ضد السياسة العدوانية التي تنتهجها الاوساط الحاكمة لهذه الدولة . وان

الاتحاد السوفياتي طيلة الأعوام الخمسين من تاريخه يكن الاحترام لكل الشعوب كبيرها وصغيرها . ولكل شعب الحق في تأسيس دولته الوطنية المستقلة. وهذا هو من المبادىء الأساسية لسياسة الاتحاد السوفياتي .

ولقد حددنا ، انطلاقاً من هذا بالذات موقفنا من اسرائيل كدولة وصوتنا في عام ١٩٤٧ الى جانب قرار هيئة الامم المتحدة بقيام دولتين مستقلتين عربية ويهودية في أراضي فلسطين التي كانت مستعمرة بريطانية . وأقام الاتحاد السوفياتي بعد ذلك علاقاته الدبلوماسية مع اسرائيل اهتداء منه بذلك الموقف المبدئي » [١] . وأكد رئيس الحزب الشيوعي الاميركي هذه الحقيقة في الخطاب الذي القاه في دلهي ، في المؤتمر الذي عقدته جمعيات أنصار السلم لنصرة العرب [٢] .

ان هذه الفئة من الدول والاحزاب الشيوعية تصر على هذا الموقف ، وترفض أية مناقشة للوجود الصهيوني في فلسطين .

٢ ـ شجب العدوان ، ومطالبة اسرائيل بالانسحاب ،

---

١ ـ نشر نص الخطاب في جريدة الاخبار ، بيروت ٢٥ حزيران ١٩٦٧ العدد ١٧٢ .

٢ ـ المرجع السابق .

والاعلان عن الاستعداد لدعم العرب .

٣ – تجريم الصهيونية وربطها بالامبريالية العالمية ، والفصل بينها وبين اسرائيل (٣) .

٤ – الدعوة لحل سلمي ، ينهي حـــالة الصراع بين العرب واسرائيل . وقد تمثل هذا الحل بالمشروع البريطاني الذي أقره مجلس الأمن ، ونال موافقة القادة السوفيات ورضـــاهم . ولقد جاء المشروع السوفياتي استمراراً لهذه المساعي السلمية .

ولكن داخل هذا المعسكر اتجاهات ثانوية أخرى . فهنالك مثلاً رومانية التي رفضت قطع العلاقات مع اسرائيل ، وتبنت وجهة النظر الاسرائيلية بضرورة إجراء مفاوضات مباشرة مع

---

٣ – تراجع بهذا الشأن الدراسات التالية :

Kudryvatsev V., The Middle East Knot P. 29 International Af fairs, 9, 1967 Moscow.

Ivanov K. Israel, Zionism and International Imperialism. P. 13, International Affairs 6, 1968 Moscow.

Astakhov S., More About The Secret Springs of The Israeli Aggression, P . 33 International Affairs, 10, 1967.

اسرائيل . وهنالك المانية الشرقية التي تبدو أكثر ميلاً لمعاداة اسرائيل لأسباب عديدة ليس هنا مجال شرحها .

ولا شك ان الموقف السوفياتي وموقف الدول والاحزاب المنسجمة معه يكرس شرعية الوجود الصهيوني القائم على الاغتصاب والمرتبط بالامبريالية . ان كوسيجين أشار في خطابه في الأمم المتحدة الى السياسة الاغتصابية التي تنتهجها اسرائيل منذ سنة ١٩٤٨ . ان كوسيجين يجيب على السؤال التالي : « وما هي السياسة التي تتبعها دولة اسرائيل » قائلاً : « بكل أسف انتهجت الأوساط الحاكمة في اسرائيل طوال فترة طويلة من تاريخ قيام هذه الدولة سياسة الإلحاق والاغتصاب وتوسيع أراضيها على حساب أراضي الدول العربية المجاورة بطردها ، وحتى إبادتها السكان العرب . وهذا ما حدث خلال ١٩٤٨ — ١٩٤٩ عندما استولت اسرائيل بالقوة على جزء كبير من أراضي الدولة العربية التي تقرر قيامها بقرار من هيئة الامم المتحدة . وطرد حوالي مليون شخص من ديارهم وجعلوا عرضة للجوع والآلام والبؤس » .

وبعد ان يشير كوسيجين الى عدوان سنة ١٩٥٦ ، والى الاعتداءات المتكررة فيما بعد يقول :

« وكما نرى فان الحرب العدوانية التي شنتها اسرائيل على

الأقطار العربية هي استمـــرار مباشر للسياسة التي فرضتها الاوساط الحاكمة المتطرفة على بلادها طوال مدة وجود الدولة الاسرائيلية »[٤] .

إن كوسيجين بعد هذا كله لايربط بين الوجود الصهيوني القائم على الاغتصاب وبين العدوان، وهو يطالب بتكريس «اسرائيل» ما قبل عدوان حزيران ، ويبحث عن حل لمشكلة اللاجئين ، لأنها تسبب التوتر في المنطقة .

إن هذا الموقف السوفياتي ، وهو موقف أحزاب ودول ، ذات قدرة ومكانة وإمكانيات ، يقف عائقاً بين المقاومـــة العربية واستقطاب قوى تقدمية كبيرة في مختلف انحاء العالم . لأن تأييد الحل السلمي، والقبول ببقاء « اسرائيل» يحرم المقاومة في فلسطين من مبررات التأييد لدى قطاعات واسعـة من الرأي العام التقدمي . وان كان لا بد من القول ان شجب الاتحـــاد السوفياتي للعدوان، وتركيزه على ارتباط « اسرائيل » بالامبريالية يلعب دوراً هاماً في خدمة النضال العربي .

ب ـ الصين والاحزاب الشيوعية الملتقية معها . ويركز هذا التحالف على ما يلي :

---

٤ ـ خطاب كوسيجين ، المرجع السابق .

١ — عدم الاعتراف بشرعية وجود اسرائيل ؛ وبالتالي تأييد تصفية الكيان الصهيوني [٥] .

٢ — دعم حركة المقاومة ، ورفض الحلول السلمية .

وتنبع أهمية الموقف الصيني ، من انه دفع كل الأحزاب والجماعات الملتقية مع الصين في العالم ، بما في ذلك اوروبا ، الى تأييد المقاومة العربية في فلسطين .

ج — كوبا وفياتنام وكورية، وتركز هذه الدول على مايلي:

١ — شجب العدوان .

٢ — دعم المقاومة .

ويزداد الموقف الكوبي كل يوم وضوحاً . ومن المتوقع ان يزداد الموقف الفياتنامي وضوحاً بعد الانتصار. ان الجنرال جياب يشير الى حرب حزيران إشارة سريعة في إحدى مقالاته ولكنها إشارة واضحة فهو يعتبر ان : « الانتصارات المؤقتة للامبرياليين الاميركان والمرتزقة الاسرائيليين باتت اخطاء استراتيجية خاصة لهم، وهي تسبب لهم مصاعب متزايدة الحجم في كل الميادين »[٦].

---

٥ ـ أنظر مقررات مؤتمر كتاب آسيا وافريقيا، بكين، ٢٧ حزيران ـ ١٠ تموز ١٩٦٦ .

٦ ـ جياب ، فونجوين :نصر كبير ومهمة عظيمة ، دار الطليعة ـ بيروت، الطبعة الاولى، ١٩٦٧ .

د ـ الاحزاب الشيوعية العربية ، والاحزاب الشيوعية العربية فئتان : الاولى ، تمثل الخط السوفياتي ، والثانية تمثل الخط الصيني، وهي ضئيلة الحجم نسبياً .

اما الاحزاب الاولى ، فمواقفها بعد الخامس من حزيران ، استمرار لمواقفها قبل الخامس من حزيران . وهي الآن تركز على ما يلي :

١ ـ فضح العدوان الصهيوني وارتباطه بالامبريالية .

٢ ـ الدعوة للحل السلمي والدعوة للمرونة والتعقل .

وقد مر وقت ، بعد العدوان مباشرة ، اكد فيه بعض هذه الأحزاب على ان الأمم المتحدة هي القادرة على حل المشكلة [٧] .

وقد ركزت صحف الحزب الشيوعي اللبناني على تأييد المشروع البريطاني واعتباره خطوة إيجابية في طريق الحل السياسي للمشكلة الفلسطينية .

---

٧ ـ مصطفى، ابراهيم : العدوان الاسرائيلي الامبريالي ؛ الطريق ؛ العدد الثالث ـ آب ـ ١٩٦٧ ص (٢ ـ ٩) ونشرت الدراسة في جريدة الاخبار .

٣ – اتهام المقاومة بالمغامرة . وقد ورد هذا الاتهام اكثر من مرة ، في بيانات وتعليقات للأحزاب الشيوعية العربية كان آخرها بياناً صادراً عن الاحزاب الشيوعية والعمالية مجتمعة [٨] .

ومن الاحزاب الشيوعية التي تشذ عن هذا الخط الحزب الشيوعي المغربي ، الذي يؤيد حركة التحرير ، ويدعم مطلب تصفية الوجود الصهيوني [٩] . ويقف ممثلو هذا الحزب مواقف باسلة في المؤتمرات الدولية .

ولكن أخطر ما في مواقف الأحزاب الشيوعية العربية أنها تستخدم لغتين ، أولهما للصحف والبيانات ، وهي لغة مرنة وحذرة ، وإن كانت واضحة مكشوفة ، والثانية لغة الحديث العادي . وإذا كانت اللغة الأولى المعروفة خاطئة ، فإن الثانية أكثر إمعاناً في الخطأ. انها تدعو إلى الصلح وتشكك بامكانيات العرب جماهيراً ودولاً على القتال والنصر .

ومع أن الأحزاب الشيوعية صغيرة ومعزولة ؛ فإن هذا الاتجاه يزيدها ضآلة وعزلة ... وقد بدأت العناصر الطيبة في

---

٨ – الاخبار والنداء ١٩٦٨/٨/٤ .

٩ – بيان الحزب الشيوعي المغربي يوم ٥ /١٩٦٧/٦ .

قواعدها تتململ ضد اصرار القيادات على مواقفها المعروفة من قضية فلسطين .

وتجب الاشارة إلى أن الحزب الشيوعي اللبناني قد قام بنقد مواقفه من القضية الفلسطينية ، خلال الخمس وعشرين سنة الماضية * .

إن الماركسية ، من حيث هي عقيدة ، تمر باختبار عسير في فلسطين ، يتعلق بموقفها من قوى الثورة وقوى الثورة المضادة من جهة ، وبقدرتها على الحسم في مواضيع أساسية مثل حق تقرير المصير واستعباد شعب لشعب آخر . والماركسيون مطالبون بالوقوف إلى جانب قوى الثورة . إن عليهم أن يحسموا بسرعة ، فالزمن لا ينتظر أحداً .

هذا الوجه النظري وجه واحد من وجوه المشكلة . أما الوجه الآخر ، فهو الوجه العملي : إنه التكتيكات التي تتبعها أية حركة في سبيل تحقيق مصالح معينة . والموقف السوفياتي ، مثلاً ، من قضية فلسطين ، ليس موقفاً نظرياً فحسب ، ولا يخضع في النهاية للتحليلات ، بل يخضع لظروف السياسة العالمية ومشاكلها .

---

* يراجع التقرير ؛ خمسة وعشرون عاماً من تاريخ الحزب الشيوعي اللبناني ، دراسات عربية ، العدد ٤ ، السنة الخامسة ، دراسة عن نفس التقرير .

وهنالك عوامل ضاغطة تؤثر في اتجاه السياسة السوفياتية أهمها :

اولاً : النهج الاصلاحي الذي تنتهجه السياسة السوفياتيــة عالمياً . وهو نهج توفيقي يسعى إلى حل المشاكل حلولا وسطاً ، وعلى موائد المفاوضات ، أو في أروقة الأمم المتحدة .

ثانياً : الصراع الأميركي – السوفياتي عالميــاً ، وهو صراع حول العالم الى مناطق محددة ، ضمن إطار توازن شبه ثابت .

ثالثاً:قدرة الصهيونية العالمية على إثارة المشاكل ضمن المعسكر الاشتراكي ، وقدرتهـــا على إثارة حمــلات مضللة ومسممة ضد الاتحاد السوفياتي ، لسيطرتها ، أو لوجود نفوذ لها في كثير من أجهزة الاعلام في الغرب ، بالتحالف ، مع الامبريالية العالمية ، العدوة الرئيسية للمعسكر الاشتراكي ...

وهنالك دول مثل كوبا أو فياتنام،لا تقوم سياستها الخارجية على أساس نهج إصلاحي ، ولا تخشى قدرة الصهيونية العالمية على إثارة مشاكل في الداخل ، ولكنها تتعرض لضغوط عالمية ،حين تتخذ موقفاً ثورياً من قضية فلسطين. فهذان البلدان مثلاًيحتاجان إلى مساندة من اليسار عامة واليسار الأوروبي خاصة . وبما أن معظم قوى اليسار الأوروبي واقعة تحت النفوذ الصهيوني ، فإن اتخاذ موقف من هذا النوع سيكلف هاتين الدولتين ثمناً غالياً ..

ولقد اضطرت كوبا ، لأن تحذف أية إشارة تتعلق بفلسطين في البيان النهائي لمؤتمر مثقفي العالم، بسبب ضغط بعض الاشتراكيين والصهاينة الأوروبيين . مع أن كوبا ، كما ذكرت ، تؤيد المقاومة في فلسطين .

إن هذه العوامل الضاغطة ، مهما كان وزنها ، يجب ألا تتمكن من توجيه الفكر السياسي ، وإلا تحول إلى فكر تابع انتهازي . وليست الماركسية كذلك .

* * *

ولا بد لي ، في الختام ، من بعض ملاحظات :

الأولى : ان هذا النقد الموجه لبعض قطاعات الماركسية لا ينطلق من مواقع عداء للماركسية وللشيوعية ، أو لبعض الدول الاشتراكية . فليس بين شعبنا والدول الشيوعية أو الماركسية أي تناقض رئيسي . إن المعركة الأساسية هي معركتنا مع الامبريالية العالمية وحليفتها الصهيونية ، والماركسيون حلفاء في هذه المعركة . ولذلك فالنقد يستهدف إزالة سوء فهم حدث وتصحيح خطأ ارتكبته بعض الدول الاشتراكية ، إزاء قضيتنا وشعبنا . وبما ان هذا الخطأ الاستراتيجي والتكتيكي يؤثر في

وجودنا ، ويترك آثاره في مجمل المعركة العالمية مع الامبريالية ، فقد كان لا بد ان يكشف وينقد . ويجب ان يفهم النقد ضمن هذا الإطار. انني احس ان من واجبي ، باعتباري وطنياً مؤمناً بالتحالف مع الشيوعية ضد الامبريالية العالمية ، ان أخاطب الشيوعيين مباشرة خطاباً ودياً وقاسياً في آن معاً.وانا اخاطبهم لأنني اعتقد بأن ما يبعدهم عني ليس مصالح متناقضة ، ولا عداء طبقياً ، ولا احتلالاً اجنبياً ... ولو كان بيني وبينهم شيء من ذلك ، لما كان هنالك حاجة لغير السلاح .

الثانية : ان هذا النقد يتجه إلى التصحيح لا الى التهديم والى الافهام لا الى المهاترة . ذلك أن الغرض من النقد كله ينحصر في محاولة إقناع القطاعات الماركسية المختلفة ، بأن الصهيونية فصيلة من فصائل الامبريالية ، وبأن « اسرائيل » قاعدة من قواعدها، وبأن النضال ضد الصهيونية وإسرائيل جزء من معركة التحرر العالمية ضد الامبريالية والعنصرية والكولونيالية بكل اشكالها. وهو لا يستهدف ، بأية حال ، دخول اية معركة من المعارك النظرية الدائرة حول الماركسية او داخل اروقتها .

الثالثة : ان الجمود الذي يبدو في اتجاهات مدرسة من المدارس الماركسية او اخرى ، يجب الا يعني يأسنا من قدرة الماركسية والدول الاشتراكية على التطور والتفهم . إن كل القوى الماركسية الطالعة ، رسمية وغير رسمية ابتداء من الصين

وانتهاء بالجماعات الماركسية التي لا يحس بها احد ، قد ادركت ابعاد المسألة العربية في فلسطين ، او هي تبدي تقدماً يومياً في إدراك ابعادها . وهذا يعني اننا يجب الا نتوجه إلى هؤلاء الذين لم يفهمونا فقط ، بل يجب أن نتوجه إلى هؤلاء الذين ثبت انهم يفهموننا ايضاً ؛ او هؤلاء الذين ثبت انهم ماضون قدماً في عملية التفهم . فهذه القوى التي لا بد من ان نتوجه إليها قوى هائلة مادياً ومعنوياً ، وهي تملك بيديها نفوذاً معنوياً واسعاً في كل الأوساط التقدمية العالمية . ومما لا شك فيه ان كسب هذه القوى والتعاون معها سبيل شعبنا إلى كسب جماهير واسعة في العالم . وربما كان وسيلة ناجعة لتصحيح خطأ القطاعات الأخرى من الماركسية .

* * *

إن المقاومة التي كانت مخاضاً ، عند كتابة هذا الكتاب ، اصبحت اليوم حركة مسلحة ، تستقطب تأييد كل الجماهير في فلسطين والبلاد العربية .. ولن يكون ماركسياً من يقف خارج حركة المقاومة

تعقيب

كنت أتمنى أن تتاح لي الفرصة لمراجعة هذا الكتاب ، قبل اعادة نشره . ولهذا أجّلت إعادة طبعه منذ اوائل سنة ١٩٧٠ الا ان دار الطليعة اضطرت لاعادة نشره لمناسبة اسبوع فلسطين في بغداد ، قبل اجراء التعديلات اللازمة ، فاستدركت الأمر بهذه العجالة .

انني اعتقد أن هنالك ضرورات تستلزم اعـادة النظر في الكتاب ، وادخال اضافات عليه . وهذه الضرورات هي :

أولاً : هنالك نقائص في النص ، وثغرات لم يكن ممكناً تلافيها في الطبعة الأولى . وكان لا بدّ من ان تتلافى هنا .

ثانياً : صدرت ، منذ صدور الكتاب ، مراجع عـدة ، حول القضايا التي يتناولها ، وكان لا بدّ من ان تراجع هذه المراجع ، وتجري الاستفادة منهـا .

ثالثاً : حدثت تطورات في مواقف الاحزاب الشيوعية العربية من قضية فلسطين او كان لا بـدّ من أن

توضح هذه التطورات ، ويدرس أثرها في مسيرة الثورة الفلسطينية .

رابعاً : حدثت تطورات ايضاً في الموقف السوفياتي من الثورة الفلسطينية ، وكان لا بد أيضاً من أن تناقش هذه التطورات. ويدخل ضمن هذا الاطار قضايا متعددة منها : أ ــ قضية الموقف السوفياتي ازاء القضية الفلسطينية ، والثورة الفلسطينية .
ب ــ قضية هجرة اليهود السوفيات الى دولة الاحتلال خلال السنتين الماضيتين .

خامساً : وكانت هنالك بعض التعديلات الضرورية ، ولكن الطفيفة ، التي يجب ان تجرى على النص .

الا أن ذلك كله لم يتم . وبهذا ظل الكتاب كما كان . انها في الواقع الطبعة الأولى من الكتاب غير منقحة ، ولا مزيدة .

آمل أن استطيع في المستقبل طبع الكتاب مرة أخرى ، وسد كل الثغرات التي فيه . ذلك أن موضوع الكتاب ما زال من المواضيع الأساسية . وسوف تزداد أهميته بزيادة نضال شعبنا ، وباتساع مناقشة قضية الوجود الصهيوني على أرضنا .

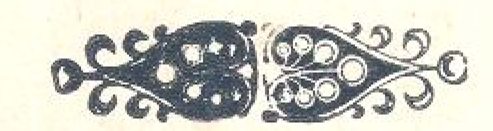
١٦/٩/٧٣ . ناجي علوش



هذا الكتاب

ناجي علوش : ولد في فلسطين سنة ١٩٣٥ ، ومن مؤلفاته :
« الثوري العربي المعاصر » و « الثورة والجماهير » و « المسيرة الى فلسطين » و « المقاومة العربية في فلسطين » . ومجموعة شعرية بعنوان « هدية صغيرة »

وكتابه هذا : محاولة لفهم مواقف انماط من الماركسيين من المسألة اليهودية ، ومحاولة في الوقت ذاته لتحديد موقف ماركسي سليم من « المسألة اليهودية » .



دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

الثمن : ... ل
٦٠٠ ق. س.